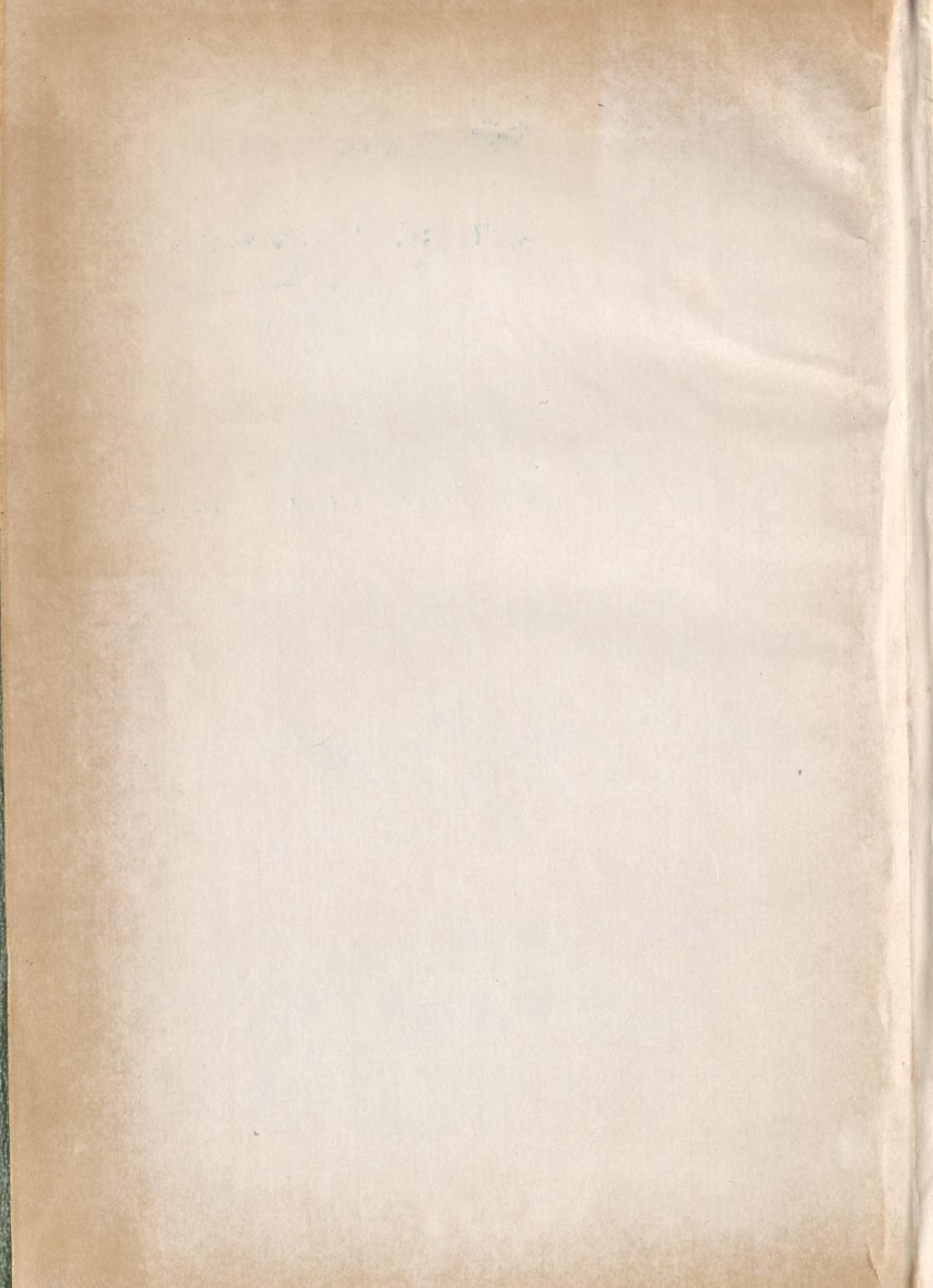
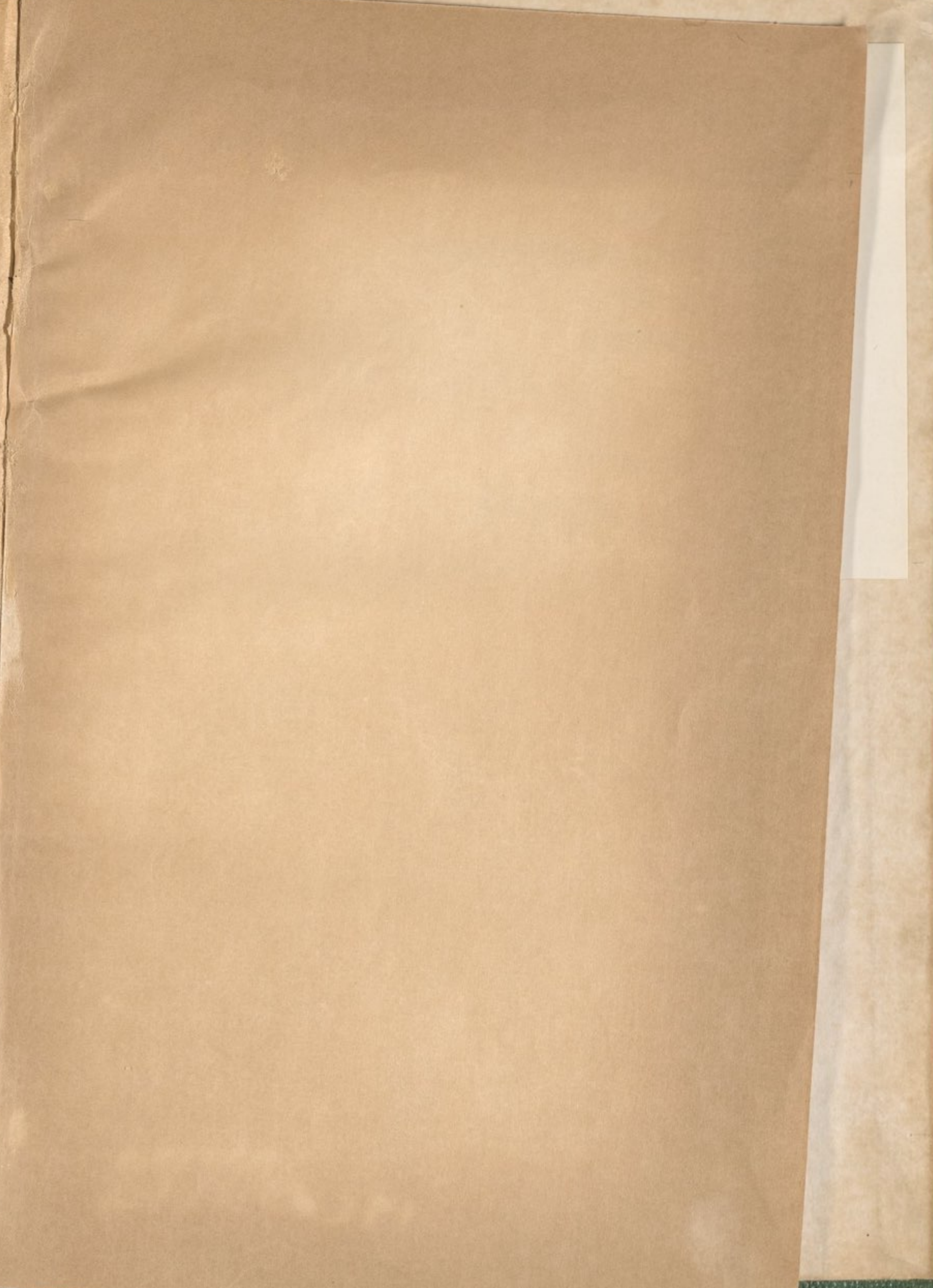
السيد فرج

حروب محمد علي

القاهرة
مطبعة التوكل بالحمزاوي
١٩٤٥


FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO





الإهـــداء

سألنى المغفور له دولة أحمـــد ماهر باشا
قبل مصرعه التاريخى بأيام عن كتابى الجديد . . .
ولم يدر أننى كنت معتزماً إهداءه إليـه ،
ولم أدر أنه سيحدث ما يجعلنى أهديه إلى . . .

إلى روح المغفور له أحمد ماهر باشا

الذى علّم هذا الجيل أن الوطنية كرامة وعدل
وأنها أداء الواجب ... مهما كانت العواقب

السيد فرج

المراجع

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار	عبد الرحمن الجبرتى
حقائق الأخبار عن دول البحار	الميرالاى اسماعيل سرهنك
الخطط التوفيقية الجديدة	على مبارك باشا
جيوش مصر البرية و البحرية	الأمير عمر طوسون
إبراهيم باشا	Pierre Crabitès بيير كربتس (ترجمة الأستاذ بدران)
عصر محمد على	عبد الرحمن الرافعى بك

و

The founder of modern Egypt, a study of Mohmed Ali	Henry Dodwell
A short memoir of Mohamed Ali	Sir Charles Augutus Murry
Histoire militaire de Mohamed Aly et de ses fils	Le Général Weygand
Mon pays, le renovation de l'Egypte, Mohmmed Ali	Princesse Chivékiar
Histoire de la guerre de Mohamed Ali contre la Porte Ottomane	Cadalvène et Barrault

تقـــديم

لحضرة صاحب السعادة الفريق محمد حيدر باشا

ياور جلالة الملك

وكيل وزارة الشئون الاجتماعية

سبق أن قدم الضابط الأديب السيد فرج للمكتبة العربية جملة من مصنفاته : هذه هى الحرب — حرب الصحراء المصرية — فى شمال أفريقيا — الهجوم على أوربا . . . وغيرها ، وهى مؤلفات عسكرية يقدمها ضابط معروف

فالصلة بين المؤلِف والمؤلَف متوطدة ، وليس فى هذا غريب ..

أما إنه يجيئنا اليوم بمؤلفه « حروب محمد على » وإن كان فى العنوان ما يشير إلى ذات الصلة . . . فإن ذلك يعد اتجاهاً جديداً أضاف به المؤلف إلى المكتبة العربية سِفْراً كانت أشد ما تكون حاجة إليه ، وقدم للقارىء اطلاعا تنبعث منه دوافع الهمة والعزيمة ، وخصوصا فى هذا الوقت الذى يحتاج فيه الشباب للجد والحق والمضاء وقوة العزم ... وهل أبعث على هذه الخلال — فى تكوين الشباب ، بل فى إعداد الأجيال — من سير المصلحين المتقدمين ، ومناهج العسكريين السياسيين

لقد كان محمد على فذاً من أفذاذ التاريخ ، وقد شاء الله أن يخص به مصر فى أسوأ حالات الحكم والاضمحلال الإجتماعى والاضطراب السياسى فاستطاع بفضل جهاده العظيم وحروبه المجيدة وسياسته الموفقة وإدارته الحازمة أن ينهض بمصر ويضع أساس رقيها فانتظمت الإدارة واستتب الأمن وعم الخير . . . وفى هذا التاريخ الحافل يجد القراء والباحثون من العسكريين والمدنيين ما يملأ النفوس فخراً وعزما وما يدفع إلى ترسم الخطى وترصد العبر من حياة هذا العاهل العظيم الذى أوتى العبقرية والمجد فأسبغهما على مصر والمصريين

وقد رأى المؤلف أن يخرج كتابه على نسق يتحقق فيه الإيجاز وتتوفر له الحقائق ، فتوخى القصد ولاحظ التبسط والتقديم بطريقة تناسب سائر القراء

وهذا فضل له منا — من أجله ومن أجل كتابه — شكراً عاما يختص منه العسكريون بنصيب كبير حيث تربطهم الصلة المجيدة بصاحب التاريخ كما تربطهم بمؤلف الكتاب

وأخيراً ، ترى بين هذا السِّفر الجامع وبين الجمع الأعم من النشء والمفكرين والقادة ، وبين القائد الأعلى فاروق العظيم — الذى ينحو نحو والده الأمجد ويترسم خطوات جده العبقرى — أقدس الصلات وأوثق الروابط ، لخير مصر ومجد شعبها

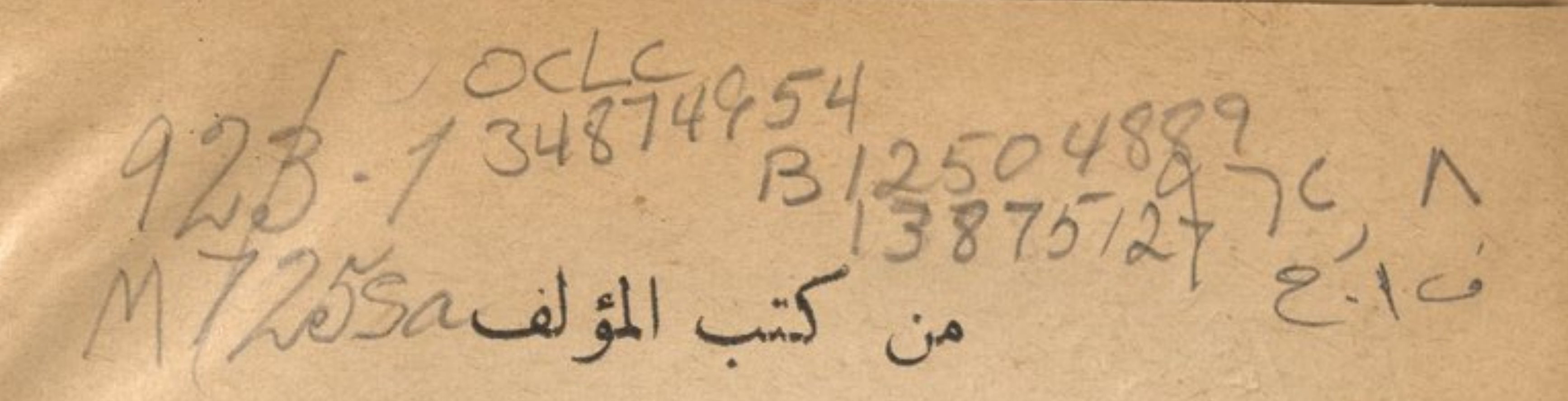
السيد فرج

حروب محمد علي

إذا فتح الله عليكم بمصر
فاتخذوا بها جنداً كثيفاً
فإن هذا الجند خير أجناد الأرض

حديث شريف

مطبعة التوكل بالجماميز
١٩٤٥



من كتب المؤلف

الهجوم على أوربا

... ولقد حقق عملا عظيما وأتى على ناحية هامة يحتاج الرجل العسكرى والرجل المدنى إلى إدراك شئونها وفهم دقائقها ... « الفريق عمر فتحى باشا »

حرب الصحراء المصرية

كتاب شائق من عدة وجوه : عرض بديع وحقائق دقيقة ودراسة منطقية لا أثر فيها للتحيز ...
Le Jonrnal D'Egypte

.. ملم بمقدمات هذه الحرب وأطوارها ، ولما اتصلت بالحرب مسألة إلا كان له إلمام بطرف من أطرافها
«الاستاذ عباس محمود العقاد»

فى شمال أفريقيا

.. قصة ممتعة متتابعة الوقائع مع أنها خاصة بمرحلة من أشق مراحل الحرب والفضل فى ذلك لسعة اطلاع المؤلف وحسن إدراكه للفن الحربى والخطط العسكرية «المقطم»

هذه هى الحرب

يجمع إلى خصائصه الفنية حقائق شائقة ومعلومات دقيقة وقد لقى ترحيبا إجماعيا من مختلف الأوساط المصرية والأجنبية
« La Bourse »

لئن أعوزنا المثل الأعلى لبث روح العسكرية فى البلاد وتقوية النفوس بمعانى الجندية السامية فلنتلمسه فى هـذا الكتاب ، وهو وليد دراسة عميقة وإحاطة شاملة ونفس وثابة فاضلة « الامير الاى أحمد عزنى بك »

نفحة من الماضى

يطيب لكثيرين أن يقبلوا على صفحات التاريخ مستوعبين دروس الماضى مستذكرين ما كان لأسلافهم من فعال باهرة وآثار مجيدة تعتز بها النفوس وتنتعش الآمال

غير أن هناك من يتجاهلون حديث الماضى كما يصمون آذانهم عن الصوت الذى يدعوهم للنظر بعين الاهتمام فى شئون مستقبلهم ، فلا يجدون من أنفسهم دافعاً لبذل الجهود ولا تساعدهم روحهم على العمل والكد ، بل يغلب عليهم اليأس والخنوع ويأخذ بقلوبهم الواجفة الوهم والتخاذل ، ويقع فى روعهم – حين يجدون وطنهم فى مشقة – ألا منجاة له ولا سبيل للنهضة به ، فيعتذرون عن السعى ويرتضون الحياة الناعمة ، وتسلبهم فكرة « لا فائدة » قوة الإرادة وروح الكفاح وتنسيهم ما ينتظرهم من مستقبل رهيب حين يسلمون أمرهم للشيطان

ولو أن هؤلاء أنعموا النظر فى التاريخ لوجدوا أمماً تنهض من ضعف وتحيا بعد ممات ، فلا مدعاة إذن لليأس ولا سبب للتخاذل

ولا بد من عمل – تحققت الغايات أم قامت فى سبيلها العقبات – فالعمل الذى يبدؤه الآباء يتمه الأبناء ، ومن سار على الدرب وصل

وتاريخ مصر حافل منذ القدم بالأمثلة الكريمة والشواهد الناطقة ، فكثيراً ما استهدفت هذه البلاد لغزوات كبرى ودارت عليها رحى الدهر فى عهود مختلفة ، فما كان أسرعها استجابة لحاجات الساعة وضرورات السياسة وما كان أبرها بماضيها وأوفاها لتاريخها ، فلا تمتد بها أسباب الضعف ولا تتحكم فيها عوامل اليأس ، بل سرعان ما كانت تثوب إلى رشدها وتكشف عن روحها وتستعيد أزمّتها وتأخذ فى توقل أدراج الصعود إلى مكانتها الرفيعة التى يشير إليها ماضيها المجيد

وهذا الكتاب « حروب محمد على » رواية عهد قريب ، يقص نبأ البلاد المصرية قبل قرن وربع قرن من الزمان ، حين نفضت عن نفسها شوائب النقص وقضت على أسباب الفوضى ، ونهضت نهضتها التاريخية التى استعادت بها سيادتها وأرست أساس حياتها الحديثة

ويمكن القول بأن هذا الكتاب صدى لرغبات شباب مصر فى يقظتهم الحاضرة ، وهم يتلمسون عوامل النهوض ودوافع التقدم ، ولا شك أنه سيطيب لهم درس أحياء مصر فى عهد محمد على باشا

وانتقالها من حالة ضعف وتأخر ، إلى منزلتها التقليدية فى ركب الحضارة والمدنية

غير أنه يجب ألا تطوف بنا هذه النفحة الطيبة من الماضى الكريم دون أن نستذكر درساً عالياً ونصحا غاليا جاءا فى رسالة ملكية سامية من صاحب الجلالة فاروق الأول إلى شباب شعبه الوفىّ : —

« أما مصر التى كانت فقد تولى التاريخ الكلام عنها والتغنى بمآثرها . . .

« وأما مصر التى ستكون فأنتم المسئولون عنها

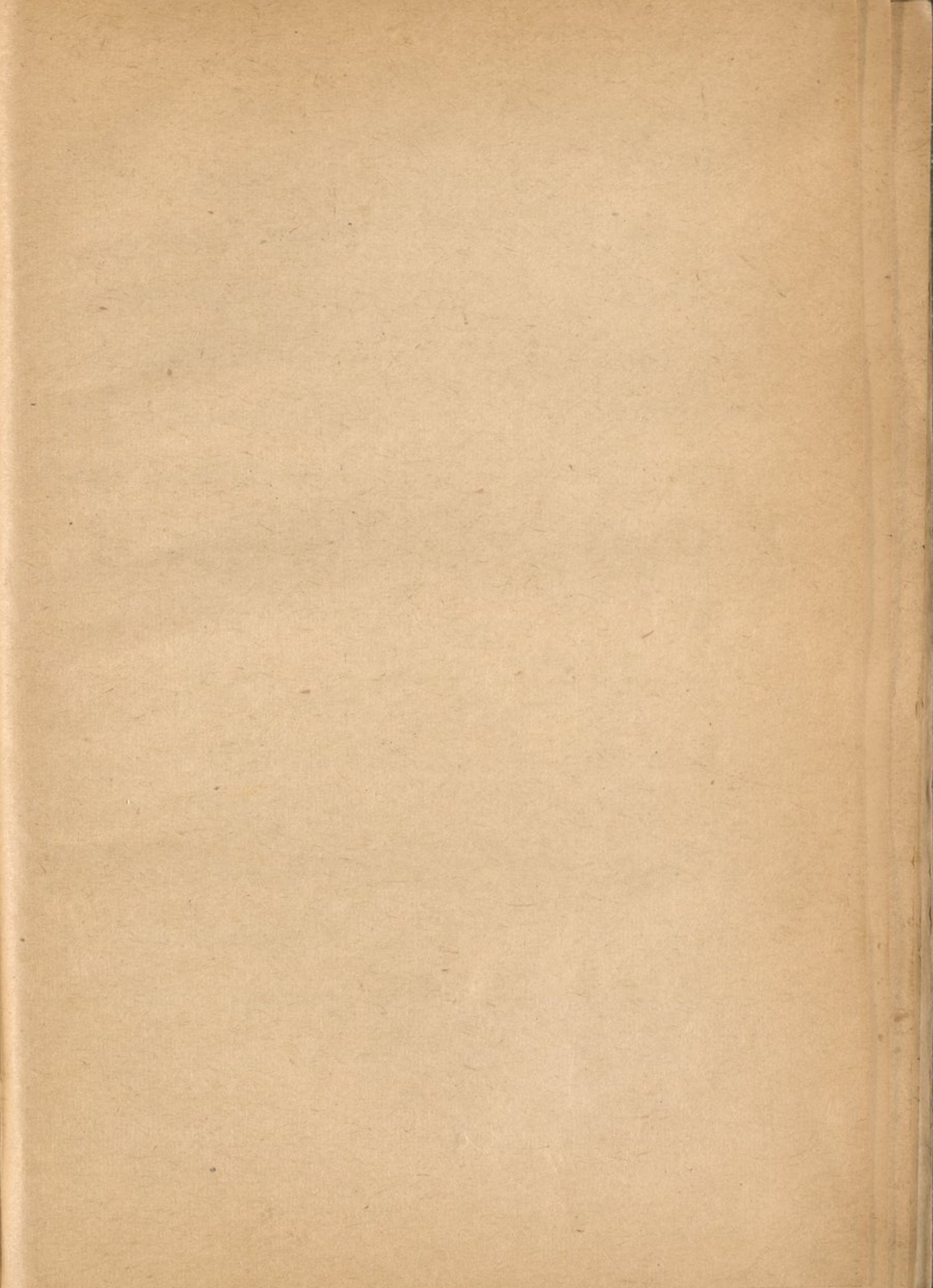
« وإنها لأمانة فى أعناقكم

« فلا تجعلوا أنشودة التاريخ فيكم أقل روعة من أنشودته فى أجدادكم

« ولنؤمن جميعاً بمصر فإنها كنانة الله

« ولنعمل لها

« وسيرى الله أعمالنا ويباركها »



الوصول إلى الحكم

هذا كتاب موضوعه حروب محمد على

وهو موضوع لا يمكن فصله عن الأصل ، أى عن شخص محمد على وأعماله وعهده . . . ولكن إذا تطرق بنا البحث فى هذه النواحى لاحتاج الأمر إلى مؤلفات ضافية الفصول ولهذا سنكتفى ببحوث موجزة فى كل مايتصل بالموضوع الأصلى من النقط الضرورية

* * *

محمد على باشا هو رأس الأسرة العلوية ومنشئ مصر الحديثة ولد فى مدينة قولة ، بمقدونيا ، سنة ١٧٦٩ ، وهى السنة التى ولد فيها نابليون بونابرت

والده ابراهيم أغا من رجال الضبط فى قولة ، من أصل تركى ، ومن عائلة صغيرة ولكن كريمة مجدّة ، ترك ولده طفلا ليس له مال ولا صناعة فكفله عمه طوسون ، ثم نشأ فى كنف حاكم قولة وكان يدعى « الشوربجى » كما أظله برعايته المسيو ليون — قنصل فرنسا فى قولة — وكان يتولى بعض الأعمال التجارية فأشرك فيها محمد على

حين توسم فيه النجابة والفطانة وتوقع له نجاحا عظيما

وعرف فى طفولته بالوسامة والذكاء ، والولوع بالفروسية وألعاب السيف ، وبلغ مدارج الرجال مبكراً فمارس التجارة واكتسب الخبرة فى دراسة الشعور والعواطف ، وأصول التعامل وفن اقتناص الفرص

وعند ما انتظم فى سلك العسكرية كان ذلك بشيراً له بالمجد ، وسرعان ما تكشفت مواهبه الفذة فاشتهر فى عدة أعمال بحرية ضد القرصان كما عمل فى القوات التى كانت تكلف باخضاع الثائرين أو المتخلفين عن دفع الضرائب ، وبلغ رتبة اليوزباشى وتزوج من قريبة حاكم البلدة ، وهى أم أولاده ابراهيم وطوسون واسماعيل

وجاء إلى مصر فى حملة القبطان حسين باشا ، التى جردتها تركيا — بايعاز من انجلترا — لإخراج الفرنسيين من مصر

وخاض غمار الحرب ضد الفرنسيين — وكانوا مردة الحرب فى ذلك الوقت — فأدرك أصول الحرب الحديثة ووجدت مواهبه ميدان رحباً ، وخصوصا بعد أن ولى أمر « تجريدة قولة » . وكان لما أظهره فى تلك المواقع من الصفات الحربية العالية ما مكن له من الترقى السريع فبلغ رتبة الأميرالاى وتولى قيادة أحد الألوية فى سنة ۱۸۰۱ وهى السنه التى انحسر فيها ظل الفرنسيين عن مصر

بمقتضى اتفاقية لندن ، وأعيدت مصر لحكم تركيا المطلق

وبهذه الخاتمة تكون مهمة محمد على فى مصر قد انتهت ولكنه لم يبارح البلاد ، وساعدته بصيرته النافذة وقريحته الوقادة على فهم أوضاع الحكم والحياة فى مصر وإدراك أسباب الضعف وأسرار الفوضى ، وقد وجد أمامه أمة ذات تاريخ ومواهب وقد حيل بينها وبين النهوض والعلاء ، تتنازع أمورها قوى مختلفة وتذهب بقوتها الأحقاد والفتن . . . ولم يكن هناك الرجل الذى يفهم أسرار الحكم فيقضى على عناصر الفوضى ويرفع العقبات عن الطريق لكى تسير مصر إلى مكان جدير بماضيها . . . أجل كان محمد على يرى من الأشياء ما لا تراه عيون الآخرين ويتوقع من الحوادث والنتائج ما لا يخطر ببال . . . وقد استشف ما يخبئه القدر لمصر ، واستلهم وحى طموحه ، وتذكر تنبؤات الماضى* ، فرأى كرسى الولاية فى متناوله ، وخصوصاً عند ما يكون سيفه فى يده

وأخذ الرجل الخبير بالأسواق والمضاربات يرقب مجرى الحوادث ويضع خططه ، ويستعد لمواجهة منافسيه والقضاء على

---

* قيل أن عرافة تنبأت لمحمد على بمستقبل كبير ، وهو طفل فى المهد ، وأن رجلا مباركا نصحه بالانتظام فى حملة مصر حين كان محمد على متردداً فقال له « يا بنى ، إن الطريق طويل ولكنه يقودك إلى المجد »

العقبات التى تعترض طريقه إلى الحكم ، فقد كان أمامه الأتراك والمماليك والألبان والتدخل الأجنبي ، وكان لا بد له من أن ينتصر على كل هؤلاء كى يستقل بمصر ويدفع بها إلى حياة جديدة حافلة

فى فبراير سنة ١٨٠٢ تولى خسرو باشا زمام الأمور فى ولاية مصر ، التابعة لتركيا ، وكان محمد على فى معيته ، يشترك معه فى وضع الخطط ويؤدى بعض الخدمات ، وكان الجهاد ضد الفرنسيين قد انتهى وجاء دور المماليك - الذين تؤيد انجلترا سعيهم إلى النفوذ والسلطان - ولم يكن خسرو الحاكم القدير أو الخصم القوى الذى يستطيع أن يقضى على عناصر الفتنة والتمرد فاضطربت شئون الحكم فى يده وأثرت تصرفاته الخرقاء فى الموقف الحربى فحدثت الانكسارات العسكرية المتوالية أمام المماليك وقد اتهم فى أمرها محمد على فاستدعاه الوالى للتحقيق معه ولكنه رفض الانصياع للأمر ورد بعنف : « سأجيء فى وضح النهار وبين جنودى ! » وهى قولة القائد الواثق بنفسه المتمكن من قوة جنوده وولائهم له . . .

ولم تنقطع القلاقل والمشاغبات فى تلك الفترة المليئة بالأحداث والانقلابات فكان هناك المماليك يرفعون لواء الحكم فى عدة مدائن ، والألبان والأتراك ، وقد انفرط عقدهم وظهرت خصومتهم ، وأنصار طاهر باشا ، الذى انقلب على الوالى ، ثم جنود محمد على

الذى شق عصا الطاعة وناصب الوالى العداء

وقف محمد على بمنأى من المشاغبات والمنازعات ، وفضل سياسة الحياد فلا يناصر فريقا على فريق ، وظل يترقب نتائج المعارك حتى تسنح الفرصة المناسبة فيتصيدها ثم يمضى. إلى هدفه بغير ابطاء

وثار الجند على خسرو حين دفع بهم الى قتال المماليك دون أن يدفع رواتبهم ثم اشتبك فى نضال مع احمد باشا طاهر قائد الأرنؤود الذى كسب الجولة الأولى فى هذه المعركة الفوضوية ووثب الى كرسى الولاية

وحاول طاهر باشا أن يثبت أقدامه فى ولاية مصر ولكنه أخفق فى محاولة القضاء على خسرو ولم يكن حاكما قديرا يفهم فى « إدارة الرجال » فحدث التنافر بين الأتراك والالبان ، وقامت قيامة الانكشارية حين كان قائدهم أحمد باشا فى طريقه الى بلاد العرب ، وحدث قتال مشوش قتل فيه طاهر باشا وعادت ولاية مصر شاغرة

وفوتح احمد باشا ، قائد الانكشارية ، لتولى الحكم ، فرضى بما عرضه عليه أعيان الترك ولكنه اشترط أن يؤيده محمد على ، الذى كان مبتعداً عن دائرة الفوضى ولم يكن يعنيه غير تدعيم قوة جنوده وتوكيد صلته بالاهالى وانتظار الساعة المناسبة لبدء دوره

رفض محمد على ماعرضه عليه الوالى الجديد وأرسل اليه ينصحه بترك شئون مصر لمصر ، وقرر أن يخطو خطوة جديدة فيضرب الاتراك بالمماليك ، ودعاهؤلاء لدخول القاهرة فاستمعوا له وشرعوا فى الزحف عليها وقضوا على الانكشارية وحركة أحمد باشا ، ثم أصبح الأمر فى أيديهم ، ولو أن محمد على كان فى الحقيقة قابضا على هذه الأيدى ، وفى هذه الأثناء تم القضاء على قوة خسرو وعلى حركة الألفى .. وخلا الجو قليلا

وبدأ محمد على الجولة الثانية حين صمم على ضرب المماليك بالالبان ! وانتهز فرصة هياج الجنود بسبب تأخر رواتبهم فأحالهم بدهاء الى زعماء المماليك ! ولم يجد البرديسى مفرا من طلب ضرائب جديدة فثار الأهالى وسخط كبارهم على هذه التصرفات الخاطئة .. ودخل محمد على باشا الحومة فسدد ضربته بحكمة إذ طارد المماليك من القاهرة ثم انقلب يلبس مسوح رجل السياسة فذهب الى القلعة وفك أسر خسرو حتى يفهم الملأ أنه ليس رجل أطماع شخصية ، وبذلك نال حظوة كبيرة عند الأهالى كما أصبح موضع رضاء الباب العالى .. وقليلون هم الذين يستطيعون أن يضربوا عصفورين بحجر

ودخلت المسألة المصرية فى مرحلة جديدة حين ثار الألبانيون على خسرو وأبعدوه عن مصر بينما كان محمد على يطارد المماليك فى

الصعيد ، وجاء خورشيد باشا حاكم الأسكندرية ليتسلم ولاية مصر ، فرأى أن يتخلص من محمد على — حتى يخلو له الجو — فاستصدر مرسوما بتعيينه والياً على جده ، فرفض محمد على وانقلب راجعاً إلى القاهرة مطمئناً إلى ولاء الجنود وعطف الأهالى

وجاء أهل الرأى من رجال مصر وطلبو إليه عزل خورشيد ! واختاروه — أى محمد على — والياً عليهم وجاء فى خطابهم « لا نرضى إلا بك ، وتكون والياً علينا بشروطنا » وتقدم السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى فألبساه الكرك والقفطان وهما شارتا الحكم وعينوه والياً ، وأرسلوا إلى السلطان ملتمساً بطلبهم فأقر رأيهم — وإن كان كارهاً — وبعث قبطان باشا حاملا سند الولاية وفرمان الحكم لمحمد على فى ٩ يوليو سنة ١٨٠٥

وهكذا استوفت المقادير فى شخصية محمد على مزايا الحاكم القدير كما أجمعت على صلاحيته لهذه الولاية ، وهو الرجل المتوقد الذهن النافذ البصيرة ، الذى أصبح بفضل كفايته وطموحه بطل الموقف فجاءته الولاية منقادة ، ولم تك تصلح إلا له

فلما رجع قبطان باشا إلى تركيا فى اكتوبر سنة ١٨٠٥ قال « لم يوفق سلاطيننا إلى رجل مثل هذا الباشا فى دهائه وحزمه ومضاء عزيمته »



محمد علي باشا

القضاء على الخصوم

تربع محمد على باشا على أريكة مصر حين رفعته إليها الزعامة الشعبية وصادق السلطان على هذا التعيين

ولكن ذلك كان فى عهد وصفت فيه ولاية مصر بأن الوصول إليها آية والبقاء فيها معجزة

وقد رأينا كيف كان الولاة يتساقطون الواحد تلو الآخر لأن أرض الفوضى والفتن والانقلابات لا تبقى شيئا ثابتا ، ولو كان كرسى الحكم

ولهذا فان الجهاد الذى كان محمد على قد بدأه فى طريقه الى الولاية لم يكن قد انتهى بل زاد كثيرا وأصبح نضالا كبيرا واسع النطاق

فقد كان عليه أن يواجه عدة عناصر خطيرة ويقضى عليها قبل أن يستتب له الأمر ، وهى : الاتراك ، المماليك ، الأرنؤود ، والعناصر الأجنبية المعادية . . . فأعد لكل منها خطة مناسبة وحدد لها وقتا

لم يكن مختار الاستانة ، وانما كان وصوله الى الولاية أمراً

جديداً لم تألفه دوائر البـاب العالى ولم تطمئن له ، فاذا كانت قد اضطرت للرضوخ وموافقة زعماء الشعب على وجهة نظرهم فقد كان ذلك ترضية وقتية وحلا لا مناص منه حتى تمر الأزمة فتراجع النظر فى الموقف وتحدث من التغير ما يناسب المقام . . .

ولذلك جعلت ترقب الحالة فى مصر وتراجع كفتى الميزان بين محمد على ومناوئيه ، وأبقت فى الأسكندرية عمارة بحرية تحت قيادة قبوطان باشـا وجعلت مهمته تثبيت محمـد على أو عزله كما تقضى الظروف .

واستخدم محمد على فطانته وحسن دهائه فأخذ يصور للرقيب ، قبوطان باشا ، ما ترمى إليه أعمـال المماليك ، الذين تسندهم سياسة أجنبية لها مراميها تتعارض مع نفوذ الباب العالى ، ويفصح عن وجهة نظره التى لا هـدف لهـا سوى انتشال مصر من الفوضى ، وأداء واجبه نحو السلطان

وكان محمد على يعتقد أن قوة الحاكم من قوة شعبه فعنى باسترضاء الرأى العـام ـ الذى انتقـل على أكتافه إلى الحكم ـ وكسب ثقتـه وتأييـده ، فكان يستشير الزعمـاء فيما يعن له من آراء ويشاورهم فيما يقدم عليه وذلك كى يستبقى مكانته الشعبية ونفوذه بين الجماهير ، فالعرش الذى يسنده الشعب لا يسقط أبداً . . .

وبدأ محمد على جهاده ضد المماليك فقد دأبوا على بث الشباك وإلقاء المصائد فى طريقه، وكانوا قوة لا يستهان بها، غير أنه كان دائماً مفتح العينين نفاذ البصيرة. فسبقهم إلى مكائدهم وأوجد فى صفوفهم «الطابور الخامس»، ورصد لهم العيون وبعث إليهم من يغرر بهم، فإذا هم يشرعون فى الزحف على القاهرة يتلمسون مساعدة كبار أهل الرأى ولكن هؤلاء أغلقوا الأبواب فى وجوههم فلم يجدوا تأييداً من الأهالى فاختلفوا وتنازعوا وذهبت ريحهم، ولاذ بعضهم بالفرار ووقع البعض فى قتال شاق مع جنود محمد على فضاعوا بين قتلى وأسرى ولم يتفق لهم «أقبح ولا أشنع من هذه الحادثة» كما جاء فى رواية الجبرتى

غير أن جهاد المماليك لم ينته عند هذا الحادث وأشباهه، فقد كانوا دائبى السعى على الكيد لمحمد على وزلزلة الأرض تحت أقدامه، وكان لهم نفوذ فى الصعيد يعد مصدر خطر كبير، وإذا كانوا قد أخفقوا فيما أسميناه «الزحف على القاهرة» فإنهم لم يعدموا وسائل أخرى، ورأوا أن يجربوا السياسة ففاوضوا محمد على أن يقطعهم أرضا، ولكن رجل الحكم والسياسة لم يقبل أن يقيم دولة فى الدولة، وجعل يترقب الفرصة التى يسدد فيها ضربته إليهم

ووجد المماليك منفذاً آخر، فقد استعانوا بالإنجليز لدى الباب العالى

وأوغروا صدر أولى الأمر فى تركيا ضد محمد على، فعطفت الآستانة على قضية المماليك وصممت على عزله، وأرسلت لذلك حملة تعدادها ثلاثة آلاف جندى تحت قيادة صالح باشا وأوفدت معه والياً جديداً هو موسى باشا

وفوجىء محمد على باستلام فرمان نقله من مصر وتعيينه فى سلانيك فتظاهر بالطاعة وطلب فسحة من الوقت حتى يؤدى للجنود ما تأخر من رواتبهم، وأخذ يعالج الأمر بحكمة ويستخدم الدهاء للتخلص من هذا الموقف السيىء، ولجأ إلى زعماء الشعب وشاورهم فى الأمر(١)، حتى إذا استوثق من إخلاصهم واطمأن إلى تأييدهم شرع يستعد للمقاومة ويرد على الاعتداء...

وذكر الجبرتى أن الباشا «شرع فى عمل آلات حرب وجلل ومدافع، وجمعوا الحدادين بالقلعة واصعدوا بنبات كثيرة واحتياجات ومهمات وجمع إليه كبار العسكريين وشاورهم وتناجى معهم فوافقوه على ذلك...»

---

(١) أرسل الزعماء ملتمسا إلى السلطات التركية يذكرون فيه أنهم لا يرتضون بمحمد على بديلا فهو «كافل الاقليم وحافظ ثغوره ومؤمن سبله وقاطع المعتدين وأن الكافة من العامة والخاصة والرعية راضية بولايته وأحكامه وعدله، والشريعة مقامة فى أيامه، وجميع أهل القطر المصرى مطمئنون لولاية هذا العزيز..»

ولكن أسلحة القتال لم تكن كل ما تخبئه جعبة محمد على ، وقد كان يعرف أسلحة أخرى لها فعل السحر فرشا رجال الحاشية ، فهدأت أعصابهم (١) ، واستمال إليه الفرنسيين فنال تأييدهم (٢) ، وألقى بالخصومة بين رؤساء المماليك فتحول ثقل الأزمة قليلا

وقد حدث خلاف بين زعماء المماليك ولم تتفق كلمتهم وبذلك خيبوا ظن الجهات التركية ورأى صالح باشا ما كان من تأييد زعماء الشعب لمحمد على فكتب إلى الباب العالى فى ذلك ، ففوض له أن يتصرف فى الموقف فانحاز الى جانب محمد على واستصدر مرسوما بإبقائه فى ولاية مصر « حيث أن الخاصة والعامة راضية بأحكامه وعدله بشهادة العلماء وأشراف الناس »

ولما اطلع قبطان باشا على ماجريات الحوادث ولاحظ ما بين المماليك من خصومات وأدرك قوة محمد على وسيطرته على الموقف انحاز الى جانبه وثبته فى الولاية وعاد الى الآستانة ومعه خورشيد باشا

وهكذا استطاع محمد على بالدهاء وحسن السياسة أن يتجنب

---

(١) بعث محمد على عريضة زعماء الشعب لتقدم إلى السلطان ومعها ألفا كيس لتوزع على أصحاب النفوذ فى الاستانة

(٢) من الجهود المذكورة ما بذله سفير فرنسا لدى الباب العالى فى تأييد محمد على

غضب السلطان ، ووعد بارسال ٤ آلاف كيس من النقدية هدية الى الآستانة ، ولكن المال لم يكن حاضرا وكان قبطان باشا رجلا عنيدا فأخذ يهدد بعزل محمد على .. ولكن أمكن حل الموقف بان يرسل ابراهيم بن محمد على رهينة إلى الآستانة - ومعه الهدايا الثمينة للسلطان وحاشيته - وأن يبقى بها حتى يدفع المال كله

وفى نوفمبر سنة ١٨٠٦ وصل فرمان تثبيت محمد على وبذلك انقضى حكم تركيا لمصر مباشرة وأصبح الأمر بيد هذا الوالى العظيم ...

أما ما حدث من قتال محمد على والمماليك حين بعث اليهم بحملة الرحمانية فقد كانت وقعته المهمة «النجيلة» يوم ١٢ أغسطس سنة ١٨٠٦ وقد هزمت قوات محمد على - التى كان يتولى قيادتها طبوزا أوغلى وطاهر باشا (ابن أخت محمد على) - فانسحبت إلى منوف ، وقال الجبرتى فى وصفها : «وردت الأخبار بأن العساكر الكائنين بالرحمانية ومرقص رجعوا إلى النجيلة ونصبوا عرضيهم هناك وحضر الألفى تجاههم فركبوا لمحاربته وكانوا جمعا عظيما فركب الألفى بجيوشه وحاربهم ووقع بينه وبينهم وقعة عظيمة انجلت عن نصرته عليهم وانهزام العسكر وقتل من الولاة وغيرهم مقتلة عظيمة

ولم يزالوا فى هزيمتهم إلى البحر وألقوا بأنفسهم فيه وامتلأ البحر من طراطير الدلاتية ، وهرب كتخدا بك وطاهر باشا إلى بر المنوفية وعدّوا فى المراكب ، واستولى الألفى وجيوشه على خيولهم وخيامهم وحملاتهم وجبخاناتهم ... »

وبذلك أحرز الألفى نصراً محلياً فى النجيلة شجعه على معاودة حصار دمنهور ولكنه أخفق فى ذلك ودافعت دمنهور دفاعا أوهن قوى المماليك وكان ما أظهره الأهالى من الشجاعة والمثابرة سبباً فى إحباط خطة المماليك وإضعاف شأنهم أمام السلطات التركية *

ثم انقسم المماليك فلجأ أنصار الألفى ينشدون تأييد الانجليز وانصرف أصحاب البرديسى يطلبون صداقة الفرنسيين ، وفى تلك الآونة المشحونة بالأحداث مات البرديسى فزالت بذلك عقبة كأداء ، وبعد شهرين مات الألفى ، وقيل أنه حين أحس بدنو أجله قال : « قضى الأمر وخلصت مصر لمحمد على »

وأخذ محمد على يستعد للقضاء على المماليك فأعد حملة لمقاتلتهم فى الصعيد ، وجعل قوامها ثلاثة آلاف من المشاة وثلاثة آلاف من

---

* قال مانجان فى كتابه « تاريخ مصر فى حكم محمد على » أن دفاع دمنهور المجيد جدير بالتسجيل فى تاريخ مصر الحربى ، وقد تولى أهلها الشجعان وحدهم الدفاع .. إلى أن تكلل دفاعهم بالنجاح فكان له تأثير كبير فى افساد خطة الباب العالى

الفرسان ، وست سفن مسلحة وغادر القاهرة فى ١٢ فبراير سنة ١٨٠٧

وقصد المنيا ، واستخدم أساليب السياسة قبل أن يطلق بنادقه ، إذ أرسل إلى المماليك يطلب إليهم الصلح بينما كان يجتذب إليه الأعراب ويستميلهم بالمال - وكانوا حراس المعسكرات - فمهدوا له دخول المدينة فانقض على المماليك وفاجأهم وأوقع بهم شر هزيمة وامتلك قواعدهم فى المنيا وأسيوط

وقد أوقفت عمليات الصعيد حين سمع محمد على بقدوم الحملة الإنجليزية على مصر فاتجه لملاقاتها - وسيجىء الحديث عنها مفصّلا - حتى تم له التوفيق وقد كان من نتائج إخفاق تلك الحملة أن نهضت الروح العسكرية والوطنية فى نفوس الشعب وذاقت مصر طعم النصر فازدادت شهيتها وتفتحت آمالها وازدهرت ، وكان من أثر ذلك أيضاً رضاء السلطان على محمد على - واغتباطه بانتصار الجيش المصرى - فأعاد إليه ولده (ابراهيم بك) وأعلنه بالرضاء العالى ...

غير أن محمد على واجه موقفاً مروعا كان الخطر فيه هذه المرة كامناً فى بعض طوائف جيشه الذى كان يجمع عناصر غير نظامية مجبولة على الفوضى والإخلال بالضبط والربط ، وهؤلاء هم جماعات الدلاة والأرنؤود الذين تمادوا فى العسف والفوضى والعصيان وقد

كان آخر ما قاموا به مظاهرة عنيفة يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٠٧ فخشى محمـــد على وقوع الفتنة والاضطراب وأوجس منهم خيفة فانتقل إلى القلعة ، بينما امتد لهب الفتنة واضطربت العاصمة وساد فيها الهرج والمرج وضاعت مقاليد الأمن والنظام ... ولم ينقذ البلاد من هذه الفتنة الحمقاء غير نشاط الزعمـــاء إلى مكافحتها ، فقد جمعوا من الأهالى أتاوات ليدفعوا إلى الجنود بعض رواتبهم ؛ فهدأت الأحوال وانتظمت الأمور غير أن محمد على لم يتغاض عن ذلك الخطر ولم يترك هذه الروح الشريرة المهددة التى هزّت الأرض تحت عرشه وكادت أن تقتلعه ، فنفى زعماء الحركة وقرر التخلص من العناصر الرديئة الفوضوية وإنشاء جيش جديد حتى يستقر النظام وتستقيم أمور البلاد

وقد استطاع محمد على أن يقضى على فتنة الجند وأن يضع من التدابير ما يكفل استقرار الأحوال بين عساكره، ثم خطا خطوة أخرى نحو الانفراد بالسلطة والنفوذ فعزم على التخلص من « زعماء الرأى العام » وهم الذين ساعدوه على الوصول إلى الحكم ووقفوا إلى جانبه فى أوقات الشدة وسندوه حين كان مقبلا على السقوط ... إذ لم يشأ أن تكون هناك قوة إلى جانبه تملك التحكم فيه والإملاء عليه، وقد كان لهؤلاء نفوذ ملحوظ لدى الشعب فلم يشأ محمد على أن يدع

هذا السلاح الرهيب المصلت عليه، والذى يملك أن يدق عنقه، وأراد أن يقصى هذه القوة ويتخلص من كل منافس له فى قلب الشعب وفى دائرة الحكم، وقد كان له ما أراد فأحدث الوقيعة فى صفوفهم وساعده ما ظهر بينهم من خلاف على التخلص منهم، وحطّم ذلك السلاح الرهيب الذى كان يعكر صفوه ويقلق مشاعره

ثم أراد محمد على أن يقضى قضاء نهائيا على المماليك ويستريح إلى الأبد من شر مكائدهم وخطر نفوذهم ؛ وقد كان كل ما فعله معهم حتى ذلك الوقت لا يزيد فى نظر المؤرخين عن « تقليم الاظافر » فبدأ معهم جهاداً جديداً !!

وراح يجرب معهم السياسة ويدبر لهم المكائد فاستمال إليه أنصار الألفى الذين أقطعهم الجيزة وعين لهم إيراداً خاصا غير أن الغالبية من المماليك أوجسوا منه خيفة وأدركوا ما وراء الأكمة فوحدوا ما بينهم وجمعوا شملهم وواجهوه بالعداء فسير إليهم جيشا جرارا أنزل بهم الهزائم والانكسارات المتوالية حتى أخضع الصعيد ؛ ثم استضاف زعماءهم وزين لهم طيب الإقامة فى القاهرة حتى خيل لهم هدوء الحال وصفاؤه

ثم أزمع محمد على إرسال حملة إلى بلاد العرب - سيجىء الحديث عنها مفصلا - فتهيب الموقف الذى ينتج من وجود المماليك حين

تكون جنوده خارج الديار ، ووراءه الخطر الكامن الذى ينتظره بسببهم فعزم على التخلص منهم نهائيا

وفى أول مارس سنة ١٨٤١ أقام محمد على مهرجانا عظيما احتفالا بتعيين نجله طوسون فى قيادة حملة الحجاز ، ودعا المماليك إلى شهود المهرجان فقدموا فى الساعة المحددة الى القلعة

وحدثت « مذبحة القلعة » وقضى على رؤساء المماليك ، وكان لهذا الحادث أثره فى مماليك الصعيد الذين لاذوا بالفرار إلى النوبة ودنقلة وبهذا انتهى محمد على من ألد أعدائه وقضى على أقوى خصومه

ولسنا فى فسحة من المجال لمناقشة هذه الوقعة التى اختلف المؤرخون فى الحكم عليها ، فقد رأى البعض أنها تتنافى مع الانسانية ومبادىء الجندية وأصول الخصومة ولكنها كانت خلاصا للبلاد من فوضى وقتال لا تحمد عقباه ، ولا يضير رجل الحكم أن يرتكب المخالفات إذا كان فيها مصلحة وطنه . .

وقد جاء منطق الحوادث مبررا لما فعله محمد على فكل عمل يصير مشروعا متى كان لازما لصالح البلاد ، والشرف لا يكون هنا فى الوفاء بالعهود والتمسك بالاتفاقيات ولكنه الاخلاص لمصالح الشعب . . ومهما كان من أمر هذا العمل فقد انتهى باستقرار

الأمور فى مصر ، وأصبح لها – لأول مرة بعد جلاء الفرنسيين – حكومة مستقرة

وقد ذكرت سمو الأميرة شيوه كار فى كتابها – بلادى* – أن رجلا من جنوا يدعى Medrici كان طبيبا لمحمد على فتحدث اليه فى أمر هذه الوقعة فقال محمد على :

« فليسا محنى الله القادر على كل شىء . . . إننى أعرف أن هذه المذبحة أمر فظيع ولكن كان يجب سفك هذه الدماء التى كان مقدراً لها ذلك . . إن إنقاذ مصر كان يحتمه .. »

---

* " Mon pays, le renovation de l'Egypte, Mohamed Ali"

إخفاق الحملة الانجليزية

فى القرن الماضى كانت مصر تفاحة خلاف بين فرنسا وانجلترا وقد كسبت فرنسا الشوط الأول حين غزا نابليون بونابرت مصر بحملته المشهورة ، ولكن نشاط انجلترا لم يفتر فى أى وقت وأخذت تترقب الفرص وتنتظر الاحـــداث المناسبة لتدخلها ، ولذلك أخذت فى مساعدة المماليك وحاولت أن تفتح صدر الباب العالى لهم ، فيقصى محمد على عن مصر وتعود دولة المماليك

وقد قدمت انجلترا فى ذلك الشأن اقتراحا يقضى بتعين محمد بك الألفى واليا على مصر وإنشاء قوة عسكرية نظامية تحت اشراف بعثة إنجليزية وبقيادة ضابط إنجليزى حتى يضمن هدوء الحال فى مصر فيتمكن الوالى من دفع جزية كبيرة للاستانة قدرها ١٥٠٠ كيس (٧٥٠٠ جنيه)

ولكن هذا المشروع قضى عليه بسبب موقف مصر حين وصلتها حملة قبوطان باشا للتنفيذ ، وبسبب ما جد فى العلاقات الدولية ، فان تركيا كانت أكثر ميلا إلى فرنسا ، وانحازت إلى

جانبها صراحة ، وازاء ذلك قرر الانجليز إرسال حملة إلى مصر لتصفية الموقف فيها ، كما كان فى ذلك العمل رد على موقف تركيا وذلك بفكرة القضاء على نفوذها فى مصر وتمزيق امبراطوريتها

وفى شهر مارس سنة ١٨٠٧ أقبلت السفن الانجليزية إلى مياه الاسكندرية ونزلت القوات إلى الثغر بالتواطؤ مع محافظ المدينة * الذى أضلته الرشوة فاستسلم ومعه ثلاثمائة جندى . وتم للانجليز الاستيلاء على الاسكندرية بدون مقاومة ، وقد ذكر الجبرتى « أن ورودهم - أى الانجليز - كان مساعدة ومعاونة للألفى على أخصامه باستدعائه لهم واستنجاده بهم ، وسبب تأخرهم فى المجىء لما كان بينهم وبين العثمانى (السلطان) من الصلح ، فلما وقعت النفرة بينهم وبينه انتهزوا الفرصة وأرسلوا هذه الطائفة ، وكان الألفى ينتظر حضورهم بالبحيرة ، فلما طال عليه الانتظار وضاقت عليه البحيرة ارتحل بجيوشه مقبلا وقضى الله بموته باقليم الجيزة ، وحضر الإنجليز بعد ذلك إلى الاسكندرية فوجدوه قد مات فلم يسعهم الرجوع فأرسلوا إلى الأمراء القبليين (أى المماليك الموجودين بالصعيد) يستدعونهم ليكونوا مساعدين لهم على عدوهم ، ويقولون لهم إنما

---

* هو أمين أغا من ضباط الاستانة وقد أغراه قنصل انجلترا بما دفعه اليه من المال ، وقدكانت تركيا تعتبر الاسكندرية مركزا منفصلا عن ولاية مصر وتضع فيها حاكما من قبلها

جئنا إلى بلادكم باستدعاء الألفى لمساعدته ومعاونته . . . الخ »

وكانت الحملة الانجليزية مكونة من ستة آلاف مقاتل بقيادة الجنرال فريزر - وهذا رقم لا يصلح لحملة ترمى إلى إخضاع مصر فقد كانت حملة بونابرت مكونة من ٣٦ ألف مقاتل - غير أن ما اتضح من اتفاق المماليك مع الانجليز جعل هؤلاء يكتفون بذلك العدد المتواضع مطمئنين إلى تأييد قوات المماليك ووجود عدد كبير من المصريين على استعداد لمؤازرتهم

وفى تلك الأثناء كان محمد على يقاتل المماليك فى الصعيد ، فلما سمع بخبر الحملة الانجليزية لم يشأ أن يصبح بين نارين ، فيحارب فى جبهتين ، ولذلك رأى أن يؤجل الجهاد الأصغر — ضد المماليك — لينهض بالجهاد الأكبر - ضد الانجليز - وقضت الضرورة السياسية والإدراك الحربى إلى مهادنة المماليك فقبل أن يترك لهم حكم الوجه القبلى فى مقابل أدائهم خراج الصعيد ، وأن يعاونوه فى مقاتلة الانجليز . . أما من ناحيتهم فقد أمضوا هذه الاتفاقات دون أن يكونوا جادين فى إخلاصهم له ، غير أنهم لم يستسيغوا أن يظهروا انضمامهم للانجليز وتأييدهم لعدو خارجى ضد أهل البلد ، فآثروا التريث وانتظار النتائج

وكانت خطة فريزر أن يزحف المماليك من الصعيد إلى القاهرة حتى

يتم لقواته أن تسيطر على الثغور ، ثم يقود الطرف الآخر من الكماشة إلى القاهرة

واعتزم البدء برشيد فأنفذ اليها ألفى مقاتل تحت إمرة الجنرال ويكوب الذى بدأ الزحف فى ٢٩ مارس ١٨٠٧ فقطع الطريق اليها فى يومين ثم تأهب لدخول المدينة فى اليوم الأخير من شهر مارس

وكانت حامية رشيد لا تزيد عن ٧٠٠ جندى غير أن حاكم المدينة - على بك السلانكلى - كان رجلا شجاعا أميناً لم تنفع معه ضروب الغواية والخداع وكان رجلا بصيرا فصمم على خداع الانجليز وقرر أن يفاجئهم .. وخشى أن تتكرر مأساة تسليم الاسكندرية فعمد إلى مراكبه فأبعدها إلى الشاطىء الشرقى حتى يصبح البحر خاف جنوده فلا يجدون مفرا من القتال إلى النهاية .. وكان من أثر فعلة « طارق » هذه أن أصبحت الخطة قوية ومهيأة للتنفيذ ..

وتراجعت الحامية إلى داخل المدينة حسب الخطة الموضوعة ، واستعد الأهلون واعتصموا ببيوتهم ... هذا بينما تقدمت القوات الانجليزية فلم تر داعيا لإطلاق النار ولم تجد أثراً للمقاومة غير أن وقت الأمان والاطمئنان لم يطل ، فقد أعطيت إشارة الانذار ، وهبت البلاد بجنودها وأهلها تدفع عن قداستها وكرامتها ودارت الدائرة على الغزاة ، وكانت المفاجأة تامة والهزيمة كاملة ..

وقد جاء فى رواية الجبرتى لهذه الوقعة أن « أهل البلدة ومن معهم من العساكر كانوا متنبهين ومستعدين بالازقة والعطف وطيقان البيوت فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليها من كل ناحية وألقوا ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا إلى ذلك وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة وأسروا الباقين وفرت طائفة منهم..»

فأهل رشيد بدأوا حرب الشوارع قبل أهل ستالينجراد بأكثر من قرن ، وفعلوا فى عام ١٨٠٨ ما أوصى به الجنرال روديميتف* فى عام ١٩٤٢ ، . . . وفازت روح المقاومة الشعبية قبل أن يتحدث كبار القواد عن « حرب الأمم » و « جبهة المدنيين » ... وهناك أيضا ملاحظة جديرة بالتسجيل وهى أن أهل رشيد - على قلة عدد جنودهم - لم يطلبوا من القاهرة مدداً لأنهم كانوا يعلمون ما طبع عليه جنود الأرنؤود والدلاة وأخلاط الأتراك من الفوضى وضعف الروح المعنوية وعدم الانقياد فلم يحب قادتهم أن يكون جنودهم خليطا مفككا . . وفى هذه الملاحظة تتضح أهمية الاعتزاز بالعنصر ، والاستعانة بالنظام وروح الجندية وتفضيل ذلك عن زيادة العدد وكثرة المعدات .

---

* من قواد الروس فى الحرب العالمية الثانية ونظريته فى القتال « الدفاع شارعا فشارعا وبيتا فبيتا وطابقا فطابقا . . »

انتصر المصريون على الانجليز فى واقعة رشيد ، وذاقت مصر كأس الانتصار العسكرى العذب واهتزت البلاد بأخبار هذا الحادث الكبير ، وقد وصف هذه الاحتفالات الجبرتى - راوية ذلك العهد فقال « أشيع وصول رءوس القتلى ومن معهم من الأسرى إلى بولاق فهرع الناس إلى الذهاب للفرجة ووصل الكثير منهم إلى ساحل بولاق وركب أيضا كبار العسكر ومعهم طوائفهم لملاقاتهم فطلعوا بهم إلى البر وصحبتهم جماعة العساكر المتسفرين معهم فأتوا بهم من خارج مصر ودخلوا من باب النصر وشقوا بهم من وسط المدينة وفيهم فسيال (ضابط) كبير وآخر كبير فى السن وهما راكبان على حمارين والبقية مشاة فى وسط العسكر ، ورءوس القتلى معهم على نبابيت وعدتها أربعة عشر رأسا ، والأحياء خمسة وعشرون ، ولم يزالوا سائرين بهم إلى بركة الأزبكية وضربوا عند وصولهم شنكا ومدافع وطلعوا بالأحياء مع فسيالهم إلى القلعة وفى يوم الاثنين وصل أيضا جملة من الرءوس والأسرى إلى بولاق فطلعوا بهم على الرسم المذكور وعدتهم مائة وواحد وعشرون رأسا وثلاثة عشر أسيرا وفيهم جرحى

وقد تجلت روح مصر فى هذه الفترة العصيبة ، وكان انتصار رشيد بمثابة الشعلة التى ألهبت نار الوطنية فى البلاد جميعا وبعثت روح

الجهاد والتضحية ، فظهرت قوة الشعب المعنوية الرائعة ، واستهان الناس بأمر الانجليز وانتهت الهيبة التى كانت معروفة للأجانب ، فذكر الجبرتى أن « أهل البلاد قويت همتهم وتأهبوا للبروز والمحاربة واشتروا الأسلحة ونادوا على بعضهم بالجهاد ، وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق وأعلاما ... »

وقد تمكن محمد على من إعداد حملة كبيرة بعث بها إلى رشيد ، فقد كان يعلم أن جهود الانجليز لا تنتهى عند هذا الحد ، وأنهم لابد أن يستأنفوا القتال أملا فى استعادة مركزهم وإنقاذ هيبتهم وإتمام ما جاءوا من أجله ... ولم يكتف بهذه الحملة بل أخذ ينظم الأعمال الدفاعية فى قلب البلاد ، ويعنى عناية خاصة بخطط الدفاع عن القاهرة

ونستطيع من مراجعة أعمال محمد على فى تلك الفترة أن نتبين جانباً من جوانب هذه الشخصية الفذة والعقلية المستنيرة ، وأن نثبت ناحية الكفاية العسكرية فى صفاته ، فهو جندى بفطرته ، يفهم فى تقدير كل موقف ويناقش حلول أعدائه ، فقد رأى أنهم لابد أن يعاودوا حملتهم على رشيد لاستعادة الشرف المفقود وإنقاذ السمعة التى أضاعتها الهزيمة ولذلك بعث إمداداً كبيراً إلى رشيد لتقوية حاميتها

وهو قائد يعرف أهمية استغلال النجاح فرأى ضرورة المبادأة بأن تسارع قوات رشيد فى العمل حتى لا تعطى فرصة طويلة للإنجليز فيزيدوا استعداداتهم

وهو رجل حكم يدرك أهمية العاصمة ، قلب البلاد ، وأنها هدف الغزاة دائما ؛ فيعمل على تقوية استحكاماتها وجعلها بمأمن من الغزو ، حتى إذا نجحت عمليات الانجليز فى الشمال وأقبلوا نحو العاصمة امتنعت عليهم وردت حملاتهم ، وبذلك تسلم الولاية ولا يسقط الوالى

كما أنه كان رجلا استراتيجياً لا يجهل مبدأ الدفاع الذى يقول بجعل المناورات بعيدة عن الغرض ولذلك جاءت خطته للدفاع عن القاهرة مثلا ممتازاً لعمل الدفاعات

وهو قبل كل شىء عسكرى حصيف ، ومعاصر لنابليون ، يعرف خطر الحرب فى جبهتين ويعمل مثله على تفرقة أعدائه حتى يكون لكل منهم دور ... ولهذا هادن المماليك حتى يفرغ من الإنجليز ، ولكل موعده

كانت الحملة التى أرسلها محمد باشا إلى رشيد تتكون من قولين سارا على جانبى شاطىء النيل يتولى قيادة أحدهما طبوزا أوغلى (كتخدا بك) بالبر الشرقى ، ويتولى قيادة الآخر حسن باشا ، بالبر الغربى ، فلما قاربا هدفهما اتجه القول الأول ناحية برنبال بالشاطىء الشرقى ، ويمم الثانى شطر الحماد .. على أنه ليس بين المؤرخين محدث حربى يستطيع أن نتبين منه أسباب تخلف محمد على عن قيادة جنوده

أو عدم ذهابه إلى أرض المعركة للإشراف على سير العمليات الحربية وأغلب الظن أنه اضطر أترك ذلك حيث كان معنيا باستحكامات القاهرة ، التى ستكون مأواه فى آخر مراحل الحرب إذا ساءت الظروف ، وأنه كان يعالج مسألة المماليك ، وحاجيات الجنود ، ومسائل الميرة والذخيرة والاموال والأمدادات الحربية

وقد حدث ما توقعه محمد على من خطط الإنجليز ، فنى ٣ إبريل زحف الجنرال ستيورات على رأس أربعة آلاف مقاتل متجهاً إلى رشيد ، وقد احتلت كتيبة من قواته بلدة الحماد (جنوبى رشيد) فقد كانت الخطة ترمى إلى تطويق رشيد ومنع وصول الإمداد إليها من القاهرة ولذلك أيضاً تم احتلال آكام أبى مندور وهى على مسافة الضرب من رشيد وبدأت عمليات الحصار

وضربت المدينة بنيران المدفعية التى ألقت أكثر من ٣٠٠ قنبلة شديدة ، وكانت حامية رشيد مكونة من ٣٠٠ من الفرسان ، ٨٠٠ من الأرناؤط وألف من الأهالى المسلحين ، وأخذ هؤلاء يصدون أربعة آلاف كاملى الاستعداد ، غير أن الأهالى كانوا يستندون إلى التحصينات والمواقع المنيعة ويسدون سبل الغزو رغم ما استهدفوا له من ويلات

ولما بلغ العناء حده لدى الجنرال سيتوارت كتب إلى قائده

الجنرال فريزر فى الأسكندرية يقول « إن ما أنبأتمونى به من قرب حضور المماليك جعلنى أتريث فى الهجوم على رشيد ، لقد ألحقنا بالمدينة أضراراً كبيرة ، وقد بلغ ما أطلقناه عليها من المدافع البعيدة المرمى وحدها ٣٠٠ قنبلة ، على أنه يتبين لنا أن الأعداء لا يكترثون بالمصائب التى تنزل بهم ، ونظراً لسعة خطوط دفاعهم وطبيعة مواقعهم لم أر من الحكمة أن أتعجل باقتحام المدينة فى انتظار النجدة ... »

وحدث تراشق بالمدفعية عند الحماد بينما كان الانجليز يشددون الحصار على رشيد دون أن تقضى قنابلهم على روح المدينه ، ثم أقبل المدد من القاهرة وحدث الاصطدام الأول بين حسن باشا وقوات الانجليز الأمامية فى الحماد فانهزمت القوات الانجليزية ولم ينقذها غير وصول إمدادات سريعة بقيادة الكولونل ماكلود الذى باشر العملية وأعاد النظر فى أوضاع قواته ، فجعل قوات الماجور وجلسند مرتكزة على شاطىء النيل ، وقوات الكابتن تارلتون على بحيرة أدكو ، ووضع بينهما قوات الماجور مور

أما قوات طبوزأوغلى فقد عبرت النيل إلى الضفة اليسرى وانضمت إلى قوات حسن باشا وبدأ الجميع مجهوداً موحداً كان أول أغراضه الهجوم على الحماد وهنا رجحت كفة الجنود المصرية ، وأصبح لها التفوق العددى فلم يجد القائد الانجليزى بداً من الانسحاب ، واستأذن

فى ذلك رؤساءه فأقروه على خطته ، وفى تلك الأثناء كانت الفرسان المصرية قد قطعت المواصلات بين الحماد ورشيد فأخفقت خطة ماك لود وتفرق شمل قواته وأصابته هزيمة مريرة فقد فيها ٤٨٠ أسيراً بينهم عدد من القواد ، وأصبحت الحماد معقلا للقوات المصرية وكانت هذه الوقعة نصراً عظيما للقوات المصرية وصفها الجبرتى بأنها كانت مقتلة كبيرة وأن الانجليز « انجلوا عن متاريس رشيد وأبى مندور والحماد ، ولم يزل المقاتلون من أهل القرى خلفهم حتى توسطوا البرية وغنموا ضمائنهم وأسلحتهم ومدافعهم ومهراسين عظيمين . . . »

وبدأت عمليات المطاردة وفيها أبلى الفرسان بلاء حسنا وفتكت الجنود المصرية بفلول الانجليز المنسحبين وأسروا منهم عددا كبيرا

وأدرك الجنرال ستيوارت ، وهو بين قواته المرابطة جنوب رشيد ، ما وصل اليه الموقف من سوء وشعر بالنكبة التى تهدده فقرر الانسحاب فورا وبذلك رفع الحصار عن رشيد ، فخرجت قوات الدفاع تتعقبه ، وطارده الأهالى إلى أبى قير ومنها أبحر إلى الاسكندرية

أما فى الأسكندرية ، فقد بلغ فريزر أنباء الهزيمة المريرة فى رشيد فأخذ يضع الخطط لتحصين الاسكندرية وقطع سد أبو قير لتحيط المياه بالمدينة فيتعذر غزوها ، وحاول إغراء المماليك فصدوا عنه بعد

ما حل به من الهزائم ، فساء مركزه كثيرا وخصوصا بعد مايئس من معاونة المماليك وأصبح يخشى نيات محمد على ، ولذلك أسرع فبعث رسله لطلب الصلح

ولا شك أن طلب شروط الصلح كان مفاجأة لمحمد على الذى لم يتوقع أن تأتى النتائج الفاصلة بهذه السرعة ، ولذلك لم يتسرع فى الرد على الدعوة وقرر أن لا يدخل فى مفاوضات قبل أن يصل بجنوده إلى دمنهور خشية أن يكون فى الأمر خداع ، ولكن رسالة فريزر كانت صادقة الوعد بعد أن فقد كل أمل فى البقاء ، كما أن الموقف الحربى فى أوروبا كان لا يسمح بعمليات أخرى ، ولذلك عدلت انجلترا عن غزو مصر وبعثت فى طلب قواتها من الأسكندرية

وبلغ محمد على دمنهور فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٠٧ على رأس أربعة آلاف من جنوده وهناك التقى بالجنرال شربروك ، مندوب الجنرال فريزر ، ورئيس وفد المفاوضة ، وقد بحثا موضوع جلاء الإنجليز عن مصر وإبرام الصلح ، وتم ذلك بتوقيع معاهدة الجلاء وقد جاء فيها « بما أن الجنرال فريزر قائد القوات البرية لصاحب الجلالة البريطانية والكبتن هلول قائد الأسطول الإنجليزى المرابط تجاه السواحل المصرية قد خولا الجنرال شربروك والكابتن فلوز من ضباط البحرية الإنجليزية سلطة إبرام الإتفاق الخاص بالجلاء

عن الاسكندرية فقد اتفق كل من صاحب العظمة محمد على باشا والى مصر والجنرال شربروك والكابتن فلوز على الشروط الآتية :

(١) توقف فوراً الأعمال العدائية من الجانبين وتجلو القوات البريطانية عن الإسكندرية فى مدى عشرة أيام من التوقيع على هذه المعاهدة وتنسحب من جميع القلاع والاستحكامات والمنشآت وتتركها بالحالة التى هى عليها الآن ويسلم صاحب العظمة محمد على باشا للقواد البريطانيين صهره مصطفى بك وعمه اسحق بك ومهرداره سليمان افندى بصفة رهائن يبقون على ظهر إحدى السفن الحربية الانجليزية إلى أن يتم تنفيذ المعاهدة

(٢) جميع أسرى الحرب الإنجليز وكذلك الأفراد الذين التحقوا بخدمتهم من الاقرباء يطلق سراحهم ويرسلون بطريق النيل إلى بوغاز رشيد حيث يبحرون على سفينة انجليزية

(٣) يصدر عفو عام عن سكان الاسكندرية أو غيرهم من الأهلين لما وقع منهم فى الماضى ويؤمنون على أرواحهم وأملاكهم لكونهم اضطروا بحكم الظروف إلى اتخاذ الطريق الذى سلكوه

(٤) نظرا لتفرق الأفراد الارقاء الملحقين بخدمة الجيش البريطانى ووجود بعضهم على مسافات بعيدة فيبقى مندوب الإنجليز فى الاسكندرية بعد الجلاء عنها ليتسلمهم كلما ظهروا ، ولهذا المندوب أن يحصل من

صاحب العظمة على كل حماية ومساعدة لأداء مهمته فى إحضار هؤلاء الأفراد ... الخ

وبهذا تم جلاء الإنجليز عن الأسكندرية فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٠٧

« ودخل اليها كتخدا بك (طبوزاوغلى) ونزل بدار الشيخ المسيرى » على حد ما جاء برواية الجبرتى وبهذا طويت صفحة الحملة الإنجليزية على مصر

ووضع محمد على يده على الأسكندرية وضمها إلى جامعة الوطن المصرى

وكان من نتائج هذه الحملة أن أعجب السلطان محمود بانتصار الجيش المصرى فأعلن رضاءه على الوالى ورد اليه ولده (ابراهيم بك) وأنعم عليه بالعطايا .

وهكذا تخلصت مصر من خطر الغزو الأجنبى ولم يبق أمام محمد على سوى القضاء على خطر العناصر المعادية فى الداخل ، فقضى على المماليك فى مذبحة القلعة وأخمد فتنة الجند وطرد زعماءها ثم تخلص مما أسميناه « الزعامة الشعبية » وبذلك تم القضاء على الخصوم وخلا الجو لهذا الحاكم العظيم ليبعث فى بلاده حياة جديدة تنعم فيها بالقوة والاستقلال والكرامة . .

إخماد حركة الوهابيين

لم يكن الأمر قد استتب من جميع نواحيه لمحمد على فى مصر حين دعاه السلطان للقيام بحملة شاقة طويلة الأمد كثيرة النفقات أريد بها قمع حركة الوهابيين فى بلاد العرب ، ففى تلك الأثناء كان محمد على يصارع خصومه ويعنى بالمسائل الداخلية ويضع النظم والتشريعات التى تنهض بالبلاد ويعد جيشه وما يحتاجه من موارد ومعدات ، ولم يكن قد مضى على ولايته عامان - كانا مليئان بالأحداث الجسام من قتال مع المماليك وتطهير فى محيط الجند إلى دفع الغزو الأجنبى - فإذا وصلته دعوة السلطان لإنفاذ حملة إلى الحجاز أخذ يعتذر بما يواجهه من مشكلات حتى وصله رسول الآستانة فى سبتمبر سنة ١٨١٠ ملحاً فى الرجاء فلم يجد محمد على مناصاً من القبول وبدأ يستعد لأول حملة خارج الديار المصرية ، وكتب عدة رسائل إلى الآستانة يعبر فيها عن ولائه وامتثاله لما كلفه به السلطان وتمنيه للفرصة التى تمكنه من أداء ذلك الواجب ...

ولم تكن المشاكل الداخلية هى كل ما يدفع محمد على باشا إلى التردد فى قبول هذه المهمة فإن الحملة ذاتها كانت تتطلب جهوداً كبيرة

لا تسمح بها حالة الأمة الناشئة فقد كان ضرورياً أن تعد حملة كبيرة مسلحة بأمضى الأسلحة ومجهزة بالمؤن والمعدات التى تكفل لها قطع الفيافى الشاسعة والتغلب على وعثاء الطريق وشدة القيظ وندرة المياه حتى تصل فى حالة طيبة فتبدأ فى مواجهة خصم قوى باسل يستعد للدفاع عن أرضه التى لا يقدس شيئاً قدرها ولا يعرف دافعاً للقتال أشد منه فى سبيل الوطن والحرية وكرامة العقيدة

ولكن محمد على رضى أن يقوم بهذه المهمة رغم ما يحيط بها من صعاب ورغم أن مركزه لم يكن يشجع على التسرع فى المضى فيها وحمل مسئولياتها ونتائجها ، غير أنه وجد لمصر صالحا فى القيام بهذه الحملة ، وترضية للباب العالى وإعلانا عن الولاء والإخلاص ، كما أنه وجد أن هيبة تركيا قد ضاعت حين أخفقت حملاتها فأراد أن ينجح حيث أخفقت تركيا

ووافق أن يقوم بهذه المهمة الشاقة ويخوض الحرب ضد الوهابيين تثبيتاً لمركزه فى مصر وإعلاء لشأن بلاده فلا يصبح والياً يعزل أو ينقل وإنما حاكما ملحوظ المكانة ، ونداً حليفاً للسلطان ، ولابد أن محمد على قد فكر فى خطر انتشار الدعوة الوهابية وما قد يصيب مصر منها إذا قدر لها النجاح وتمكن قادتها من القيام بفتوح وغزوات لنشر مبادئهم وإخضاع البلاد المجاورة

وأراد محمد على بهذه الحملة أن يؤدى مهمة دينية جليلة فتسمو مكانته ويكسب عطف العالم الإسلامى حين ينقذ الحرمين الشريفين ويعيد مناسك الحج ويؤمن سبله

وفكر فى الشهرة التى واتت على بك الكبير حين بسط نفوذه من قبل على بلاد الحجاز فأطلق عليه شريف مكة لقب « سلطان مصر وخاقان البحرين »

كما أنه رأى فى ذلك فرصة مواتية ليتخلص من العناصر الرديئة المشاغبة فى جيوشه ، فينتهى إلى الأبد من الدلاة والأرنؤود وأشباههم ، ثم يأخذ فى إعداد جيش جديد ، جيش نظيف يدفع به نهضة مصر ويعلى قدرها

ولم يجد غضاضة أو اعتراضا على فرض ضرائب جديدة مادامت ستبذل فى جهاد دينى ومن أجل غايات شريفة يضعها المسلمون فى اعتبارهم الأول

ولذلك كله قرر محمد على أن يقوم بهذه الحملة « لرفع المذلة والمهانة عن زوار الكعبة والقبلة الشريفة معقد آمال المسلمين ومتعبدهم ، وإنقاذ الأرض المقدسة ... »

وأما الوهابية التى أريد القضاء عليها فهى مذهب المتطرفين فى الإسلام وشيخ هذا المذهب هو محمد بن عبد الوهاب من أهل العيينة

فى نجـد ، وقد عنى بالمسائل الدينية فى صباه ودرس تعاليم الإسلام بتعمق وراعه انحراف الكثيرين عن أصوله الدقيقة واستنكر ما رآه من البدع التى كانت فاشية وأراد الدين خالصاً من الشوائب ، فارتداء الحرير وشرب الدخان وإقامة الزارات ونصب القباب على القبور تعد فى نظر الوهابيين مخالفة لأحكام الدين ، والدعوة فى حد ذاتها صالحة غير أن تطبيقها كان متطرفا مغاليا فيـه ، وقد انحرف أنصار الدعوة عن مبادئها السليمة وأسرفوا فى ارتكاب الفظائع واختراع الممنوعات

وقد انتقل مركز الحركة من الحساء إلى الدرعية على أثر حادثة غضب لها حاكم الحساء ، وفى الدرعية وجدت مجالا خصبا حيث صادفت الدعوة هوى من نفس حاكمها محمد بن سعود ، واستندت الدعوة إلى قوة السيف وأخذت تنتشر تدريجيا حتى عمت بلاد نجد ثم تجاوزتها فى عهد خليفته عبد العزيز بن سعود فبلغت مشارف العراق والبصرة وكربلاء مما أثار سخط المسلمين ، واتخذت الحركة شكل الأعمال العدائية حتى امتدت يد الثوار إلى القبور والمساجد والأضرحة التى يكرمها عامة المسلمين

وقويت الحركة الوهابيـة فتغلبت على محاولات شريف مكة وصدت حملات حاكم العراق ، وامتد نفوذها إلى مسقط وشواطىء

الخليج الفارسى ثم سقطت مكة فى أيدى الوهابيين عام ١٨٠٢ وكتب عبد العزيز بن سعود الى السلطان ينبئه بفتح مكة وهدم القباب ومنع مجىء المحمل من دمشق أو القاهرة

ثم استولى الوهابيون على المدينة ونهبوا نفائسها — وكانت لاتقدر بمال — وبلغوا فى انتشار نفوذهم حدود فلسطين والعسير ويمن ، وأصبح سعود بن عبد العزيز صاحب الأمر والنهى فى جزيرة العرب وانحسر ظل السلطان وانقشع نفوذه ، وأصبحت بلاد العرب ملك السعوديين

عين محمد على باشا ولده طوسون — وكان فى السابعة عشرة من عمره — قائداً للحملة ، وأقام معسكراً بجهة القبة جعله مركزاً للرئاسة ، وقضى عشرة أشهر فى إعداد الجنود والأسلحة والقوات اللازمة ، وقد بلغ عدد الجنود ثمانية آلاف ، وأخذ يتدبر مسألة النقل عبر البحر ، فشرع فى بناء أسطول بحرى ، واستورد الأخشاب اللازمة وأنشأ ترسانة بولاق — وهى مصانع لصنع المراكب — حتى أتم إنشاء ثمانية عشر مركبا كبيراً تكفى لنقل الحملة وما يخصها من ذخائر ومؤن ومهمات

ولم ينس أهمية الإمدادات والتموين لمثل هذه الحملة فعنى بهذه الشئون كثيراً وعين مديراً للمهمات ، السيد محمد المحروقى ، وألحق به

طائفة من الصناع من كل حرفة

وضم إلى جيش طوسون رجلا أسكتلندياً ، يدعى توماس كيت وعهد اليه بالاشراف على الشئون المالية

كما أنه - وهو معاصر نابليون - لم يقصر واجبات الحملة على الناحية الحربية وإنما أرسل معها العلماء من أئمة المذاهب ، وخصوصا وأنها مرسلة فى جهاد دينى

وقدر طول السفر ووعرة الطريق وندرة الماء وشدة الوهابيين - وهم فى أوج قوتهم - فأعد لكل شيء عدته

وأدرك ما هو مقدم عليه من حرب شاقة إزاء خصم عنيد ، وهو سعود الكبير ، الذى تدين له بلاد العرب بالخضوع ، والذى أعد قواته وقبائله للدفاع ضد الغزو الأجنبى عن وطن الأعراب الذى يفتدونه بكل شيء ... أدرك ذلك كله محمد على فلم ينس أن يستخدم الحكمة مع السيف ، ففاوض بعض العشائر وأغراها بالمال والوعود وأوجد «الطابور الخامس» الذى مهد له وبذل كثيراً من العون ، كما اعتمد على كثير من العرب وأشراف مكة وأهل الحجاز وغيرهم من الناقمين على حركة الوهابيين فكانوا من العوامل التى استطاع والى مصر أن يستفيد بها فى غزوته التاريخية

وكانت الخطة أن تنتقل المشاة بالسفن من السويس إلى ينبع

وتسيير الفرسان برا من طريق السويس فالعقبة حتى يتلاقى الطرفان عند ينبع ومنها يبدأ الزحف

وأقلع الأسطول من السويس فى الثالث من سبتمبر سنة ١٨١١ بينما ترك الفرسان تحت قيادة طوسون

ووصلت الحملة إلى ميناء ينبع ونزلت المشاة إلى البر وحدث قتال محدود هزمت على أثره حامية الميناء وتلاشت بين قتلى وأسرى وهاربين . . هذا بينما تقدمت الفرسان واتصلت بالمشاة ، وبدأت التجريدة المصرية فى الزحف نحو المدينة

وحدثت معركة فى بدر دامت ساعتين انهزمت على أثرها قوات السعوديين وأسرعت بالتراجع الى وادى الصفراء حيث كانت الخطة تقضى بالدفاع إستنادا على ما أعد من قبل من تحصينات واستحكامات

تقدّمت قوات طوسون صوب وادى الصفراء ، من طريق اقتراب ضيق ، وكانت قوات الوهابيين تتحكم فى طرق الاقتراب وتشرف عليها من أمكنة مرتفعة حتى إذا لاحت لها قوات الغزو صوبت اليها البنادق وأرسلت عليها وابلا من المقذوفات فاوقعت الاضطراب بين القوات الأمامية التى كان جنود الأرنؤود فى مقدمتها ، ولم تساعد هؤلاء روحهم الضعيفة على الثبات والمقاومة فتشتت شملهم وسارعت اليهم الهزيمة ، وكاد أمر الحملة ينتهى إلى إخفاق مر فارتدت إلى ينبع

بعد أن خسرت أكثر من نصف عددها

ولم يتخذ الوهابيون الأهبة لهجوم مضاد أو لمطاردة وتطويق القوات المتراجعة ولم يفكروا فى الإسراع إلى مهاجمة ينبع فى تلك الاحوال السيئة التى كانت تعانى فيها القوات المصرية ويل الهزيمة

ووصلت أنباء الحملة إلى محمد على وشخص اليه بعض القادة والجنود ، ولكن عزيمته لم تقهر وسارع فى إعداد حملة جديدة ، ويقول الجبرتى فى ذلك « لم يتزلزل الباشا ، واستمر على همته فى تجهيز عساكر أخرى ، وبرزوا إلى خارج البلدة . . »

وبناء على إرشادات محمد على وتوصياته لإبنه طوسون راح هذا الأخير يغرى رؤساء العشائر ورجال القبائل ويضمهم إلى جانبه بالمال والعطايا فكانوا له خير عون فى غزوته الثانية . .

فلما وصلت الإمدادات وانضمت اليه قبائل العرب تقدم إلى الصفراء فاحتلها بغير قتال ، ووصف الجبرتى هذه العملية بأنها « تمت بغير حرب ، بل بالمخادعة والمصالحة مع العرب ، وتدابير شريف مكة . . » ثم واصل طوسون سيره حتى بلغ مشارف المدينة المنورة بعد رحلة شاقة لاقت فيها جنوده الأمرين من حرارة الجو ووعورة الطريق ، ولو أنه كان يتبع خطة مثلى إذ كان يسير فى الليل ويريح قواته بالنهار اجتناباً للحرارة الشديدة وإمعانا فى التستر . . وأخيراً

أطبق على المدينة فحاصرها دون أن يطلق عليها نيرانه إحتراماً للحرم الشريف ، وانتهاجا لخطة جديدة تنطوى على المفاجأة .. ذلك أنه أطلق الألغام تحت أسوار المدينة ثم فجرها فاقتعلت جانبا من الأسوار وأحدثت الثغرة — على حد ما يفعل كبار القادة أزاء التحصينات الحديثة — ثم أخذت جنوده تتدفق من الثغرة ، والتقت القوات وشبت الحرب التى انتهت بانتصار كبير للجنود المصرية وتم على أثرها انحلال القوات المقهورة وفرارها فتسلم طوسون المدينة وأرسل بمفاتيحها إلى محمد على مبشرا ومهنئاً .. ويروى الجبرتى أن مفاتيح المدينة وبشرى الانتصارات بلغت الوالى « يوم الأضحى فحصل للباشا بذلك سرور عظيم وضربوا مدافع وشنكا بعد مدافع العيد »

وبعد المدينة احتل طوسون جدّه ثم سار إلى مكة واستولى عليها بغير قتال ثم احتل الطائف فى ٢٩ يناير سنة ١٨١٣ فدانت له بذلك أهم مواقع الحجاز

ولم يكن سعود بن عبدالعزيز - أو سعود الكبير كما اصطلحوا على تسميته - خصما عادياً وإنما كان مقاتلا عنيداً ، فإنه لم يجاذف بجميع قواته فى ذلك القتال الذى دارت رحاه ، والذى انتهى باستيلاء طوسون على جدة ومكة والمدينة ، وإنما راح يرقب حركات خصمه بعناية وحرص ويختبر قوته وأسلوبه فى القتال ، ولعله كان يحرص

على مبدأ الحرب الصحراوية الذى يقول « إذا كانت الصحراء حليفتك فاجعل خصمك يتوغل فيها ثم وجه اليه ضربتك .. »

وجه سعود قوتين كبيرتين ، قاد أحدهما بنفسه وقاد الأخرى نجله فيصل ثم شرع فى الزحف إلى مكة والمدينة واعتزم قطع المواصلات بينهما

وقابل طوسون هذه الحركة بإرسال قوة بقيادة مصطفى بك لمهاجمة تربة (٨٠ ميل من الطائف) التى كانت مركز قيادة فيصل ، فطوقها بجنوده وشدّد عليها الحصار ولكن البلدة انقلبت على بكرة أبيها وصدته بعنف وقتال لا هوادة فيها * فارتدت القوات المصرية على غير هدى تاركة المعدات والمدافع وفى الوقت نفسه كان سعود يهاجم الحناكية (٢٠ م من المدينة) ففتحها وشرع فى الزحف على المدينة .

وهنا رأى محمد على أن يشخص بنفسه إلى بلاد العرب فأعد حملة كبيرة كى يستطيع أن يقضى بها على مقاومات الوهابيين وينتهى من اخضاع بلاد العرب ، وقد ترك مكانه ولده ابراهيم ليشرف على الوجه القبلى، وحسن بك ليشرف على الوجه البحرى ثم غادر مصر فى أغسطس فبلغ جدة فى شهر سبتمبر سنة ١٨١٣

---

* قادت هذه الحركه سيدة بدوية تدعى غالية ، كان زوجها من شيوخ تربة ، وكانت زعيمة فى قومها ومن أشد انصار الوهابية وأقوى خدامها

ولا ريب أنه أراد من وجوده فى أرض العمليات أن يعيد النظر فى أوضاع قواته ويراجع خططها، كما أن وجود القائد فى المعركة يبعث الحماس والحمية فى نفوس جنوده ويمكنه من إصدار القرارات الحاسمة ومواجهة المواقف السيئة بما تقتضيه ... وكان محمد على يرتاب فى نوع الدور الذى يقوم به الشريف غالب، وراح يعزى أسباب الهزيمة إلى تراخيه فى معاونة الحملة المصرية وعنايته بخدمة مصالحه الشخصية، كما رأى من الخطأ بل من الخطر أن يطلع هذا الرجل على خطط المصريين وهو موضع الارتياب، فقرر القبض عليه واعتقله وأرسله إلى القاهرة بعد أن صادر أملاكه وولى مكانه أحد أفراد عائلته الأقربين، الشريف يحيى بن سرور

ووضع خطة تقضى بتحصين المراكز الهامة وتأمينها ضد هجمات الوهابيين كما فعل فى مكة، ثم الشروع فى الأعمال التعرضية ومهاجمة العدو، ورأى قبل أن يهاجم النسر أن يحطم أجنحته وكانت هذه الأجنحة هى قبائل البدو من أهل عسير فأرسل حملة قوامها ألف ومائتى جندى لاحتلال قنفدة ولكن العرب وضعوا أيديهم على عيون الماء وقاوموا بشدة فتراجعت القوة المصرية بسبب مشكلة المياه، وارتدت ارتدادا مضطربا عاثرا كلفها خسارة بالغة ...

وقد لاقت حملة طوسون على تربة نفس النتيجة ولم ينجح

الحصار الذى ضرب حولها بسبب ما لاقته الجنود من متاعب الصحراء ومقاومة العدو الباسلة .

ولكن هذه الهزائم وما ظهر على أثرها من نشاط الوهابيين لم تضعف من تصميم محمد على ولم تصرفه عن عزمه ، فأرسل فى طلب المدد فوافاه نائبه فى مصر بسبعة آلاف جندى من المتطوعين ، ويروى الجبرتى أن كتخدا بك — قائم قام الوالى — شرع فى « استكتاب آشخاص من أخلاط العالم ما بين مغاربة وصعايدة وفلاحى القرى فكان كل من ضاق به الحال فى معاشه يذهب ويعرض نفسه فيكتبونه وإن كان وجيهاً جعله الكتخدا أميراً على مائة أو مائتين ... »

ويمكن القول أن محمد على لم ينازل « سعود الكبير » منازلة جدية ، أو أنه لم تتح لها الفرصة للقاء لأنه فى الوقت الذى كان فيه الطرفان يستعدان للمعارك الفاصلة توفى سعود فى إبريل سنة ١٨١٤ فكان ذلك من المصادفات الطيبة التى صادفها محمد والتى كثيراً ما كان يلتقى بها فى طريقه

على أن وفاة سعود الكبير لم تقض على الحركة ولم تنه القتال ومع أن ولده عبد الله لم يكن فى مثل بأس أبيه وعلو همته ، إلا أن القتال ظل مستعراً ونال فيه الوهابيون عدة انتصارات صحراوية انتهت بتطويق الطائف وأصبح طوسون على رأس قواته محاصراً . ٣٤٠٠

فعمد محمد على إلى الحيلة لينقذ قواته المحصورة فى الطائف بأن أرسل إلى طوسون رسالة قدّر لها الوقوع فى أيدى العرب ، وقد جاء فيها « إنى قادم إليك فاحذر والحق بنا فوق الجبل » فلما عرف الوهابيون ذلك ظنوا بهذه الرسالة الظنون واعتقدوا أن جيشا كبيرا قد شرع فى الزحف لتخليص المحاصرين فلا يمتد الوقت حتى يصبحوا — أى العرب — بين قوسى الخطر ، أسرعوا فى رفع الحصار من الطائف وعجلوا بالانسحاب

وإلى هذه الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها لم يكن مركز الحملة المصرية قد تحسن ، فقد بلغ الإجهاد بالجنود مبلغا سيئا فى هذه الحرب الصحراوية المتنقلة الحافلة بالمتاعب والمشاق التى يهددهم فيها تقلب الأعراب وثورانهم . غير أنه مما يذكر لهذه الحملة بالخير أنها فى تلك الآونة كانت قد أمنت طريق الحج وسهلت أداء الفريضة للمسلمين من جميع الأقطار

ثم حدثت موقعة كبرى بسبب ما حشد فيها من قوات وبسبب ما انتهت إليه من نتائج وهى موقعة « بسل » وفيها التقى محمد على باشا على رأس أربعة آلاف مقاتل بفيصل بن سعود على رأس ٢٠ ألف ، وذلك فى شهر يناير سنة ١٨١٥ وقد استمرت المعركة نهارا كاملا وانتهت بهزيمة ساحقة للوهابيين خسروا فيها ستمائة من رجالهم

وزحفت قوات طوسون إلى مراكز الوهابيين فأدالتها واحدا بعد آخر واستولت على رينة وبيشة وتربة وقنفدة والرس وكان من نتائج هذه الانتصارات أن داخل اليأس ابن سعود فأرسل وفدا لطلب شروط الصلح وحدثت لذلك هدنة مؤقتة حتى يعرض الأمر على والى مصر

وكان محمد على قد ترك بلاد العرب فجأة وأسرع الى مصر بسبب ما بلغه عن اختلال الأمن وما أشيع من مؤمرات تدبر فى غيبته (١) كما أن حالة الحرب بين فرنسا وأعدائها كانت قد دخلت مرحلة جديدة حين عاد نابليون من منفـــاه وأعاد أوروبا إلى الأتون ... وخشى أن تستهدف مصر بسبب ذلك إلى الأخطار

وقد وفد مندوب الصلح إلى مصر فى سبتمبر ١٨١٥ وكان محمد على قد صمم على أن ينتهى من الوهابيين فانتهز الفرصة وتشدد فى طلباته التى كان فى مقدمتها أن يسافر ابن سعود الى الآستانة ليكون رهن أوامر السلطان فرفضت هذه الشروط (٢) وكان هذا نذيرا

---

(١) مؤامرة لطيف باشا . وهو من مماليك محمد على ، أنعم عليه السلطان بالباشوية حين كان موفداً لحمل بشرى الاستيلاء على المدينة ، وقد طمع فى الولاية ومالأ الحكومة التركية على ذلك ، وأخفقت محاولته ، وقتل أثناء فراره

(٢) جاء فى كتاب ابراهيم باشا — لبير كربقس — أنه جاء فى رسالة ابن سعود « لم يبق لدينا شيء من النفائس التى وجدها والدنا سعود عند قبر =

وعاد طوسون فى شهر نوفمبر سنة ١٨١٥ إلى مصر فاستقبل استقبالا حماسيا سجله الجبرتى بما شاهده من «زينة الحوانيت والشوارع ودخول الموكب الحافل من باب النصر وطلوعه القلعة ..» وقد ولى طوسون فى مصر قيادة بعض الفرق حتى عاجلته المنية ليلة ٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٦

ولم تكن الهدنة التى أقرها طوسون وابن سعود سوى سلم مسلح بينما كان الطرفان يتأهبان بشدة ويستعدان للعمليات الفاصلة ولذلك أخذ محمد على يفكر فى قائد قدير يستطيع أن يقوم بضربة عاجلة فيقضى على الوهابيين ويخضع بلاد العرب جميعها وقد ناقش محمد على أولى الأمر فيمن يقع عليه الاختيار ، ويروى أنه جمع القواد والوزراء والرؤساء وشرح لهم خطته الحربية ثم أشار إلى تفاحة أمامهم وسط طنفسة كبيرة مفروشة فى أرض الحجرة وقال لهم «من استطاع منكم

= النبي وحملها معه ؛ بل بيعت كلها وبددت أما حكم البلاد فاسمحوا لنا أن نقول أن فى استطاعتكم أن ترسلوا رسولا من قبلكم يجمع لكم الأعشار ..) فأغضب هذا الرد محمد على وأجاب الرسل بقوله (قولوا لمولاكم أنى عارف بأنه قد حصن المدن وحشد الجند وتأهب للقتال ، وليس هذا كله بخاف على فأبلغوه نصيحتى أن يأخذ حذره ، ويحتاط لنفسه ، لانى مرسل الى الحجاز ولدى ابراهيم لينزل بيلادكم الخراب والدمار ويأتى إلى بأهلها أمواتا أو أحياء ...) وهكذا أبدت الرغوة عن الصريح وعرف كل من صاحبه ما يبطن له ...

أن يصل الى هذه التفاحة فيتناولها بيده ثم يأتيني بها من غير أن تطأ قدمه الطنفسة ولبته قيادة الحملة على نجد ... » وقد عجز الجميع عن الوصول إلى التفاحة حتى أقبل ابراهيم وأخذ يطوى طرف الطنفسة إلى الداخل حتى أصبحت التفاحة فى متناول يده فأخذها وحملها إلى والده فولاه قيادة الجيش فى الحال ... !

وقد جاء ذكر ابراهيم أكثر من مرة فى الصفحات الفائتة ولكنها لم تكشف عن روحه ولم تعبر عن شخصيته الفذة ، فهذا الرجل الذى كان رهينة فى الآستانة والذى ولى حكم الصعيد فى غيبة والده والذى اختير فى السابعة والعشرين من عمره لقيادة حملة الحجاز ، قد وضع قدمه فى ساحة التاريخ ودفع اسمه بين عظماء القادة وأفذاذ المحاربين وقد جاء تعيينه فى هذه الحملة بشيرا له بالمجد فانبعثت شهرته وبزغ نجمه فى سماء العسكرية وواتته الفرصة التى دفعت به الى الميادين العالمية تحت سمع التاريخ وبصره

قضى ابراهيم قرابة ستة أشهر فى إعداد الحملة ، وقد امتازت بوفرة النظام وجودة التسليح وحسن التدريب وقد ألحق بهيئة أركان الحرب المسيو Jassière ، من ضباط نابليون ، كما انضم إلى القسم الطبى عدد من الإيطاليين الاخصائيين

تحركت قوات ابراهيم من القاهرة فى ٥ سبتمبر سنة ١٨١٦ الى

أسيوط حيث انضم اليها ألفان من الأهالى ثم بلغت قنا وتركتها الى القصير حيث بدأت عمليات العبور، وبلغ الأسطول المصرى ينبع فى ٢٩ سبتمبر فنزلت القوات واتجه سيرها شطر المدينة المنورة(١) وقد اختار ابراهيم بلدة « الصويدرة » لتكون معسكرا عاما لقواته، وفيها بدأ يعد خطط الغزو

وكان أول ما فكر فيه هو القضاء على العرب المناوئين للقوات المصرية فقد كانوا يترصدون للقوافل ويقطعون الطريق بين الصويدرة والساحل، فأرسل اليهم قوة فتكت بهم ... وكان من أثر هذا العمل الحاسم أن انحاز كثير من العرب إلى جانبه وآثروا مساعدته

وتقدمت القوات المصرية نحو الرس - وكان الوهابيون قد استولوا عليها عقب اخفاق مشروع الصلح وشرعوا فى تحصينها فحاصرها ابراهيم طيلة ثلاثة أشهر دون أن تلين قناة أهليها أو يضعف من

---

(١) عند ما بلغ ابراهيم باشا المدينة المنورة فى ٩ اكتوبر بادر بزيارة قبر المصطفى ، وهناك دعا له شيخ الحرم بالتوفيق (يا أيها النبى الكريم ، هاهو ابراهيم بن محمد على قد خر ساجدا! أمامك وقد قدم الى ديارنا ليهلك أعداء دينك فأيده اللهم بنصرك وهبه القدرة على تأييد شرعك ونصرة كتابك المقدس وتمزيق شمل العصاة الوهابيين ..) فعقب ابراهيم على ذلك داعيا الله أن ينصره (فاجعل النصر حليفى ووفقنى إلى معرفة مقاصد العصاة فان أعدائى هم أعداؤك وأعنى على تمزيق شملهم ...)

عزمهم ، وقد تكلف هذا الحصار ، وما تخلله من هجمات قوية مايزيد على ثلاثة آلاف من الضحايا مع ما استنفذ من ذخيرة ومؤن ومجهودات وأخيرا تراخت قوة الحصار بسبب الملل وضآلة القوة ومتاعب الصحراء وانتشار الأوبئة وكثرة الخسائر ، فرفع الحصار عن البلدة وتراجعت عنها قوات ابراهيم بعد اتفاق غريب مع عبد الله بن سعود وهو أن يسلم الرس لابراهيم اذا تمكن من الاستيلاء على عنيزة !

وكانت عنيزة من أهم مواقع نجد ، وقد سار اليها ابراهيم بعد استيلائه على الحمراء فحاصرها ستة أيام حتى سلمت وبذلك كان له أن يدخل الرس طبقا لما جاء فى الاتفاقية السابقة ، واستأنف ابراهيم الزحف ، وأعادت انتصارات عنيزة والرس الأمل فى نجاح الحملة وأنعشت روح الجنود ، فتم احتلال بريدة بسرعة وسهولة ومنها بدأ الزحف الى الشقراء

ولم يحدث التحام قبل أن تصل امدادات وافرة من مصر ، وبعدها سارت الحملة الى الشقراء فحاصرتها ورجمتها بمدفعية شديدة حتى سلمت فى الثانى والعشرين من يناير سنة ١٨١٨ وعد ذلك من الانتصارات الحربية الباهرة للحملة المصرية

وبقيت الدرعية ـ وهى عاصمة الوهابيين ومركزهم المنيع

على بعد ٨٠ ميل من الشقراء - وكانت قوية بأسوارها وبما وضع فيها من قوات وأسلحة ومؤن ، فاقتضى الأمر أن تستعد القوات المصرية استعدادا عظيما وأن توضع لفتح الدرعية خطط كبيرة الإحكام

وكان ابراهيم عقب استيلائه على الشقراء قد ترك بها حامية مناسبة ثم شرع فى الزحف على الدرعية ، وفى الطريق قاومته «ضرمة» وامتنعت عليه وكانت غنية بما فيها من جنود ومؤن وجياد ، قوية بدفاع أهلها وصلابتهم ، فشن عليها حربا شعواء وأدار حولها قتالا عنيفا سلمت البلدة على أثره فقتل أهلها جميعا !

ثم هطلت الأمطار فأوقفت التحركات وقضى ابراهيم شهرين فى ضرمة ثم تركها يوم ٢٢ مارس فى طريقه الى الساحة الأخيرة

وهكذا طوى الجزيرة حتى جاء الدرعية بعد حرب شاقة وقتال مرير وطريق محفوف بالمصاعب والأخطار وأحوال جوية متقلبة وأصبح على أبواب المرحلة الأخيرة فى تلك الحرب ، فأخذ يعد لهذه المرحلة الفاصلة عدتها ، ووضع خطة محكمة للهجوم على الدرعية تشتمل على البدء بضرب المدفعية بينما تدور الفرسان حول البلدة لشغل أهلها ثم تقوم المشاة بالاقتحام حين تضطرب حالة الدفاع تضعف قوته ولكن بقيت الحالة على أشدها شهرين كاملين دون أن تتمكن الحملة

المصرية من دخول البلدة التى دافعت دفاعاً مجيدا عبّر عن روح أهلها وصلابتهم ، ولا غرو فقد كانت الدرعية قاعدة الحركة وآخر معاقلها .

وحين كان الحصار يطول فى أمثال تلك المواقع لم يكن الملل يصيب المدافعين وحدهم ولكنه كان يبرى المهاجمين أيضا حيث تقسو عليهم الطبيعة وتطول بهم المحاولة ، وزاد فى سوء موقف الجنود حول الدرعية حادث جاء قضاء وقدرا فإن ريحاً شديدة كانت تهب فى تلك الأنحاء فأطارت نارا كان يوقدها أحد الجنود فبلغت مكان الذخيرة فنسفت ما يقدر بنصف المرتب ، وكاد الموقف أن ينقلب إلى خسارة مريرة وإخفاق أخير لولا ما بذله القائد من جهود واحتياطات لتوفير الذخيرة ، كما أنه على أثر هذا الحادث قام السعوديون بهجوم مضاد - منتهزين الفرصة المواتية - ولكنه أخفق بسبب ثبات ابراهيم وقدرته على مواجهة الشدائد ، والتخلص من المواقف السيئة . فقد تفادى الهزيمة ورد الوهابيين على أعقابهم ، ثم حمل عليهم حملة شعواء حين وصلت الإمدادات والذخائر ، وهاجم البلدة هجوما عنيفا حتى أفقدها القدرة على المقاومة ، وانتزع منها الثبات والصلابة ، وأطاح بآخر آمال السعوديين فأرسل أميرهم مندوبيه لتلقى شروط الصلح فى التاسع من نوفمبر سنة ١٨١٨

وانتهى القتال وسلمت الدرعية - عاصمة الوهابين - وسافر ابن سعود على أثر تلك الهزيمة الى الآستانة ، وقضى على حركة الوهابيين القضاء الاخير وخضعت بلاد العرب لوالى مصر فكان ذلك من الأحداث الكبرى فى تاريخ الجيش المصرى ، وقد احتفلت البلاد بهذا الانتصار العظيم يوم ١٨ أكتوبر فى القاهرة وأطلقت المدافع تحية وابتهاجا

وقد وصف الجبرتى الحفلات الحربية فروى أنه « وردت البشائر من شرق الحجاز بمراسلة من عثمان أغا الوردانى أمير ينبع بأن ابراهيم باشا استولى على الدرعية والوهابية » فانسر الباشا لذلك الخبر سرورا عظيما وانجلى عنه القلق وأنعم على المبشر وعند ذلك ضربوا مدافع كثيرة من القلعة والجيزة وبولاق والازبكية ، وانتشر المبشرون على بيوت الأعيان لأخذ البقاشيش ووصل المرسوم بالمكاتبات من السويس وينبع فأكثروا من ضرب المدافع من كل جهة بحيث ضرب بالقلعة خاصة ألف مدفع وأمر بعمل مهرجان وزينة داخل المدينة وخارجها وبولاق ومصر القديمة والجيزة ، وشنك على بحر النيل تجاه الترسانة ببولاق . . ثم احتفل بهذه البشائر سبعة أيام أخرى ثم أعدت حفلات نيلية فى بولاق « تضرب فيها المدافع وتوقد المشاعل وتعمل أصناف الحراقات والسواريخ والنفوط

وتتقابل القلاع المصنوعة على وجه الماء ، ويرمون منها المدافع على هيئة المتحاربين . . »

وهنا نستطيع أن نعرف القائد الفاتح على أضواء هذه الجملة ونقف على بعض مزاياه كجندى كبير ، وما امتاز به من صفات شخصية ساعدت مع الصفات العسكرية على جعله جديرا بهذه الصبغة التى اكتسبها بين عظماء الرجال والشهرة التى واتته كرجل سيف ورجل حكم .

أما من الناحية العسكرية فقد كان استراتيجياً بعيد النظر ، فاختار السير فى الوادى الطويل الممتد من مكة الى نجد حتى يسلم من المرور بوادى الدواسر - وكان يقطنه المتطرفون من العرب - كما أنه رأى فى ذلك ضمانا لحاجته من الماء ، وهذا يكشف عن الناحية الإدارية وأهميتها فى نظره

وفى الوقت نفسه كان سياسيا حصيفا يعرف أن الكسب بغير حرب أفضل من الانتصار فى الحرب ولذلك أخذ يستميل اليه البدو ويجمع حوله الأنصار بحسن سياسته ، وكان يحسن معاملة الأهالى فحرص جنوده على النظام وعدم الاعتداء ، وقد ذكر الرحالة الإنجليزى بلجريف ، إن ابراهيم حرم على جنوده وضباطه إيذاء الأهالى العزل ونفذ ذلك التحريم وعاقب مخالفيه بأشد الجزاء

وعنايته باضعاف خصمه من ناحية استنفاد الموارد تفصح عن حصافته وسعة حيلته ، فقد كان يدفع بالبدو الذين لا فائدة منهم أمامه إلى أوساط نجد ليستنفدوا موارد الوهابيين

أما شدته ، فى موضع الشدة ، فقد كانت مضرب المثل ؛ وقد عرف بالقسوة الشديدة مع أصحاب الأفكار التى تتعارض مع سيادة القانون والنظام ؛ ومن الوقائع المشهورة أنه استدعى رجال الدين والفقهاء لمراجعة أسباب الخلاف بين العقائد ، فلما طال النقاش دون أن ينتهوا إلى رأى ، أمر بهم فقتلوا ، وأنقذ الاسلام من هذه الشوائب الضارة وصان وحدة المسلمين وكان شعاره فى ذلك الآية الكريمة « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »

وكان حاكما كيسا أو مثالا للنزاهة والصبر كما وصفه أحد المؤرخين فكانت سياسة تنظيم البلاد المفتوحة والمسالمة مع الشعب الخاضع والاستعانة على حكم البلاد بأمرائها الأقدمين ، وفى الوقت نفسه كان يتبع القسوة والصرامة حين تؤدى إلى الأغراض ، مسترشدا فى جميع أعماله بقواعد النظام والرقى والعدالة

هذا هو ابراهيم البطل المصرى ، ونقول المصرى لأنه قال من قبل « لقد جئت مصر طفلا فغيرت شمس مصر دمى وبدلته دما مصريا خالصا . ! » وهذه غزوته لبلاد العرب التى قمع بها حركة

الوهابيين وأخضع بلاد العرب وهى بداءة غزوات وحروب كبرى جعلته من أعظم رجال الحرب فى التاريخ

نعود بعد ذلك إلى استكمال قصة الحملة المصرية بعد أن دانت لها بلاد العرب فقد أرسل عبد الله بن سعود إلى الاستانة حيث قتل بأمر السلطان

أما عن الدرعية فقد أرسل محمد على أمرا بتخريبها وتدمير حصونها ثم أرسل أخوة عبد الله بن سعود إلى القاهرة ، ثم عاد ابراهيم إلى مصر فوصلها يوم ٩ ديسمبر سنه ١٨١٩ وهناك استقبل استقبال كبار الفاتحين واستمرب الزينة والوقود والسهر بالليل وعمل الحراقات وضرب المدافع فى كل وقت من القلعة ومفاتن وملاعب فى مجامع الناس سبعة أيام بلياليها فى مصر الجديدة والقديمة وبولاق وجميع الأخطاط . . . »

وأهم ما يلفت النظر فى هذه الاحتفالات أن محمد على لم يظهر فيها حتى يترك جلالها وعظمتها لولده ابراهيم ، ولهذا بقى فى أثنائها بعيداً عن الأنظار تدفعه إلى ذلك عاطفة رقيقة ، فبينما كان ابراهيم يدخل القاهرة من باب النصر ويشق طريقه إلى القلعة فى موكبه الرهيب ، كان محمد على واقفا فى مسجد الغورى فى موضع لا يراه منه أحد

يشاهد من أحد نوافذه موكب ابنه أثناء مسيره فى يوم من أيام المجد المصرى

أما بعد عودة ابراهيم الى مصر فقد بقيت قوة من الجنود المصرية فى بلاد العرب تحت قيادة الميرميران - أى الفريق - أحمد شكرى باشا ابن أخت محمد على وقد عين حاكما على جدة ووضعت حاميات نسبية فى مكة وينبع والمدينة وقنفدة وغيرها من المراكز الهامة . .

وبعد مضى وقت طويل انشغلت مصر خلاله بأحداث هامة أخذ نفوذ شكرى باشا يضعف فى بلاد العرب وعادت حركة الوهابيين تبعث من جديد وأخذت القبائل العربية تناهض الحكم المصرى وتشن الغارات على طرق القوافل ومسالك الحجاز ثم راحت تتوغل فى ضواحى البلدان وتهدد صفو الأمن فى مكة والمدينة وتهدد طرق الحج .

فلما بلغ الأمر مرحلة لا يحسن السكوت عندها أرسل محمد على حملة من جنوده النظامية لاخماد نشاط المفسدين والقضاء على الفوضى وإعادة الأمن وإقرار السكينة ، وكان قوام الحملة الألاى الثانى مشاه تحت قيادة الأميرالاى محمد بك الدويتدار وقوة الفرسان التركية وعدة مدافع ، وضم اليها عددا من القواد الفرنسيين واثنين من المهندسين المصريين — وقد أنيطا برسم الخرائط —

ووتحرك الركب من عدى فى شهر اكتوبر سنة ١٨٢٣ فوصل إلى قنا بطريق النيل ثم بارحها الى القصير ومنها عبر إلى جدة - التى أصبحت قاعدة تموين القوات المصرية بالحجاز - ورابطت الحامية فى مكة خمسة عشر يوما حتى جهزت الخطط وكانت ترمى إلى التقدم فى اتجاه سلسلة جبال الطائف .

وولى قياده الحملة شكرى باشا وكانت قواته تتكون من آلاى مشاة وستة أورط وبلوكين وقوة من الفرسان ومدفعية مناسبة ، وقد غادرت الحملة مكة من طريق شاقة ومسالك جبلية وعرة حتى بلغت الطائف وبعد إقامة قصيرة عاد الركب الى المسير فى اتجاه الشرق مارا بكلاح وتربة وعقيق وشينه ومنها انحرف جنوباً مارا بجنيفة ووادى ونان وسليلا حتى التقت بطلائع العدو - بعد مسيرة ٢٥ يوماً - عند مرتفعات جبال شيط وكان العدو الذى يبلغ عدده ٢٥ ألف رجل يرابط فى مراكز منيعة ويستعد لملاقاة الحملة المصرية ، ثم دارت رحى قتال عنيف وفوجىء العرب بقوات نظامية مدربة ذات أسلحة ممتازة لاعهد لهم بها، وانتقلت المعركة إلى سفوح الجبال ولم تأخذ وقتا طويلا بسبب تفوق الجنود المصرية فى قوة النيران وحسن النظام ووفرة الاستعداد فتراجعت قوات العرب عن مراكزها وتركت بالميدان أربعمائة من أفرادها بين قتيل وجريح وأسير بينما

خسر المصريون أربعين قتيلا وجرح مائة وثمانية وعشرون وكان من نتائج هذه المعركة أن انتهى عهد القلاقل واختتمت حركة الوهابيين واستتب الأمن فى بلاد العرب

وقد أصدر محمد على — على أثر ذلك — مكاتبة إلى ناظر الجهادية — على نحو ما يجىء فى البلاغات الحربية الحديثة — جاء فيها عن هذه المعركة « وجاءوا - أى العرب - خفية من طرف الجبل ومعهم خمسة وعشرون ألفا وأرادوا أن يبيتوا لعساكر المنصورة ويباغتوهم ولكن المخافر الأمامية كانت منتبهة فى كل وقت فلما رأوا أولئك الأشقياء جائين أخبروا بمجيئهم فى الحال ضربت النقارات وأخذت العساكر تتوقل الجبال وتصطف صفوفا حسب الأصول المرعية فألفوا سداً منيعا كأنه من حديد ، فلما وصل الأشقياء إلى مرمى الرصاص بدىء باطلاق النيران عملا بقاعدتنا ؛ وحمى وطيس الحرب ست ساعات ونصف ساعة بالتمام وأخيراً اشتبك الطرفان فيما بينهم بالطعن بأسنة البنادق فلم يستطع أولئك الأشقياء الثبات والمقاومة فاختلت أحوالهم فبادروا إلى الفرار ، وقد كانت تلك المحاربة ليلية لا يستطيع اللسان أن يصفها فإن ثبات أولئك العساكر المجاهدين أمام ذلك الجمع الكثيف من أشقياء العرب وانتصارهم عليهم ثم رجوعهم إلى أماكنهم بكل جسارة وبسالة من غير أن

يخلوا بالنظام بالرغم من كون اصول التعليم العسكرى أينما تكون وقت التعليم فقط لا أثناء الحرب ليجعلنا نعتقد من غير شك ولا شبهة أنهم سيبلون البلاء الحسن عند وقوع حرب أخرى ... »

وفى هذا البلاغ الحربى ما يشعر بمقدرة قوات محمد على النظامية وكفايتها فى الحرب وما كانت عليه من تدريب ودراية ؛ فقد كانت تتبع أحدث أساليب الحرب وتجرى فى نظامها وتحركاتها على الأصول المرعية ، وتحارب عدوا شديد البأس فى أرضه - بين الصخور والمرتفعات التى يجيد فيها القتال فتهزمه وتقصيه ، وهى تتبع قواعد الحرب فلا تفتح النيران على العدو إلا حين يصل إلى خط (التمويه) حتى يكون الضرب محكما ومفاجئاً وبدون إسراف فى الذخيرة ، وهى تضع النقط الأمامية لملاحظة تحركات العدو واستكشاف نواياه والتسرع فى إبلاغ القوات الرئيسية ما يتكشف من أمره ؛ وهى تستخدم الفرسان فى الاستكشاف البعيد المدى والحصول على المعلومات وسرعة إبلاغها وغير ذلك من قواعد الحرب الحديثة

وفى نهاية البلاغ نجد العاهل العظيم ؛ وهو بالقاهرة يطمئن إلى نتيجة التجربة وما بلغته جنوده من كفاية حربية ، فيجعله ذلك واثقا من أنهم «سيبلون البلاء الحسن» حين يبعث بهم فى غمار حروب أخرى ...!

فقد كان يحلم بفتوح شائقة وأمبراطورية مصرية عظمى



بلاد العرب والسودان

حملات فتح السودان

لم يكد محمد على باشا ينتهى من حروبه فى بلاد العرب ويبسط سلطانه على الجزيرة بعد إخماد حركة الوهابيين حتى جاشت نفسه بالآمال الكبار فقد كان يحلم بتكوين امبراطورية عظيمة موطدة الدعائم موفورة النظم تحاكى الممالك العظمى فى عصره وتقف معها على قدم المساواة ، ولذلك صحّت عزيمته على فتح السودان وضمه إلى جامعة الوطن المصرى

وكان — منذ فازت جنوده فى بلاد العرب بالانتصارات العظيمة وبدأت الآلات الحربيه الجديدة والنظم المستحدثة التى أشاعها الكولونيل سيف فى القوات المصرية تبشر بنهضة عسكرية حافلة — يفكر فى ميادين جديدة لتحقيق ما يهدف له من أغراض حربية ، وكان هناك أكثر من دافع يجتذبه نحو الجنوب

وقد ذكرت عدة أسباب دفعت محمد على باشا إلى فتح السودان منها توسيع المجال الحيوى لمصر ، وتجنيد السودانيين حتى يضم إلى جيشه عناصر قوية معروفة بالصبر والشجاعة والولاء ، وتخليص

قواته من العناصر غير النظامية وتدمير البقية الباقية من المماليك الذين استوطنوا دنقلة بعد فرارهم من مصر ، وقيل أنه كان معنيا بكشف منابع النيل (١) وتأمينها ، فقد كان يدرك أن الاستقلال الصحيح لا يتحقق لمصر قبل أن تمتلك مجرى النيل من المنبع إلى المصب (٢) كما كان مهتما بما سمعه عن وجود معدن الذهب فى أرض السودان فأراد كشف مناجمه ولذلك ألحق بالحملة عدداً من المختصين

ويرى بعض المؤرخون أن فتح السودان كان مشروعا قوميا بحتا أراد به محمد على تأليف وحدة مصر السياسية ، وإعادة البلاد إلى حدودها الطبيعية والمحافظة على كيانها القومى

وقد ذكر الجبرتى عن غايات محمد على من فتح السودان ما يأتى :

---

(١) قال مسيو ديهر أن فى كتابه (السودان المصرى فى عهد محمد على) أن محمد على بايفاده الرحلات والبعثات لاستكشاف منابع النيل قد حقق الأمل الذى كان يطمح اليه علم الجغرافيا

(٢) ذكر ابراهيم باشا فوزى فى كتابه (السودان بين يدى غردون وكتشنر) أن محمد على باشا سمع أن دولة أجنبية تسعى لمعارضته باحتلال منابع النيل فاهتم لهذا الغرض أكبر الاهتمام واستشار كثيرا من المهندسين الاوروبيين الذين جاءوا من بلادهم الى مصر فأقروا بالاجماع أن وقوع منابع النيل تحت نفوذ دولة أجنبية أمر لا تحمد عقباه حيث تصير حياة مصر فى يدها ، فصمم على انفاذ الحملة إلى السودان

« حضر الباشا من الصعيد بعد أن وصل فى سرحته إلى الشلال وكان الناس تقولوا على ذهابه إلى قبلى أقاويل ، منها أنه يريد التجريد على بواقى المماليك المتقطعين بدنقلة فإنهم استفحل أمرهم واستكثروا من شراء العبيد وصنعوا البارود والمدافع وغير ذلك ، ومنها أنه يريد التجريد أيضا وأخذ بلاد دارفور والنوبة ويمهد طريق الوصول اليها ومنها أنهم قالوا إنه ظهر بتلك البلاد معدن الذهب والفضة والرصاص والزمرد .. »

وقال فى موضع آخر « قوى عزم الباشا على الإغارة على نواحى السودان ومن قائل إلى دارفور ، وصارى العسكر ابنه اسماعيل باشا ، ووجه الكثير من اللوازم إلى الجهة القبلية ، وعمل البقسماط والذخيرة ببلاد قبلى والشرقية .. »

ويتضح من ذلك أن محمد على كان قد صمم على فتح السودان لأكثر من سبب واحد وأنه سافر بنفسه إلى الحدود الجنوبية كى يجرى استطلاعا شخصيا فيما وراء حدوده وهناك وضع خطط الزحف بما تمليه طبيعة تلك الجهات ، فلما عاد إلى مصر شرع فى التمهيد للحملة وإعداد مستلزماتها ، وبعث إلى المماليك يسترضيهم ويدعوهم للحضور إلى مصر فرفضوا دعوته وأخذوا يهددون الحدود الجنوبية بأغاراتهم عليها وبذلك وجد سببا لمقاتلتهم

وقد ولى قيادة الحملة إسماعيل باشا - ثالث أنجال محمد على - وكانت تضم أربعة آلاف مقاتل منهم ١٢٠٠ من الفرسان العثمانيين و ٤٠٠ من فرسان العرب والمغاربة، و ٦٠٠ من المشاه، و ٣٠٠ من رجال المدفعية، و ٨٠٠ من المشاه العرب والمغاربة، و ٧٠٠ من عرب العبابدة، وقد أعد للحملة السفن اللازمة لنقلها بطريق النيل والإبل الضرورية لنقل المؤن والمعدات

وتحركت الحملة فى ١٩ يولية سنة ١٨٢٠ بطريق النيل بينما سار الفرسان بمحاذاة الشاطىء، فلما بلغت الدر سارع المماليك إلى الفرار ودخلها إسماعيل بغير مقاومه ثم اتبع ذلك بالزحف على دنقلة حتى أخضاعها وفى خلال ذلك كثر عدد الذين خضعوا من المماليك بينما تشرد الباقون فى أنحاء السودان حتى لاقوا حتفهم

وبعد احتلال دنقلة دخل الجيش بلاد الشائقية - التى تقطنها قبائل شديدة البأس، قوية التحفز لحماية البلاد والدفاع عنها - فواجه إسماعيل ثلاثين ألفاً بين فرسان ومشاة فى معركة عنيفة دارت يوم ٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠ تغلبت فيها النيران على الشجاعة وانهزمت قوات الشائقية بعد أن فقدت ٨٠٠ مقاتل مقابل ٣٠ من المصريين ثم احتل اسماعيل عاصمتهم (كورتس) وأحرقها ومما يذكر أن إسماعيل دعا أهل الشائقية - الذين أعجب ببسالتهم - للانضمام

إلى الجيش المصرى، فقبل بعضهم؛ وحاربوا بشجاعه، وظلوا موالين مخلصين وأبلوا البلاء الحسن

وأستأنف اسماعيل الزحف فى ٢١ فبراير سنة ١٨٢١ ففتح بربر فى ١٠ مارس وشندى يوم ٨ مايو والحلفاية ثم أم درمان وأخيراً بلغ الخرطوم، ثم احتل دنار وواد مدنى حتى دخل العاصمة فى يونيه سنة ١٨٢١

وكانت ثمة حملة أخرى أرسلها محمد على تحت قيادة صهره محمد بك الدفتردار لفتح كردفان، وكان الطريق اليها وعرا فى صحراء يباب لا ماء فيها ولا غذاء وقد حدث اشتباك كبير مع سلطان دارفور فى معركة باره، نال فيها القائد المصرى نصراً حاسما مكنه من احتلال الأبيّض.. وكانت معركة باره نصراً للمدفعيه المصرية التى انتزعت النصر بعد مشقة وعناء، ثم حطمت بعد ذلك محاولات الهجوم المضاد

غير أن الجيش المصرى كان يواجه عدواً آخر أشد خطراً وهو أمراض المناطق الحارة، التى فتكت بالجنود وأهلكت منهم عدداً كبيراً، فساءت أحوال الحملة فى سنار وكردفان وأوشكت على الفناء (١)

---

(١) وصل عدد الوفيات ١٥٠٠ فى شهر اكتوبر سنة ١٨٢١

ولذلك سارع محمد على - عند ما بلغته الأنباء المحزنة عن الحملة المهددة بالهلاك - فأرسل نجله إبراهيم باشا على رأس قوة كبيرة ومعه المؤن والملابس وعدد كبير من الأطباء وكميات من الأدوية ، وبذلك جدد الأمل فى نفوس هؤلاء المحاربين البواسل وأنعش روحهم المعنوية ، وكان قدوم ابراهيم بشيرا لهم بالنصر والسراء

وشرع ابراهيم فى إعداد خططه لفتح ما بقى من ولايات السودان واستقر رأيه على أن يتقدم بنصف الجيش فيخترق سنار متجها إلى أعالى النيل بينما يقود إسماعيل نصف الجيش إلى إقليم فازوغلى على النيل الأبيض

فلما بلغ ابراهيم منتصف الطريق أصابه المرض فعاد إلى مصر واستمر إسماعيل فى زحفه حتى بلغ أهدافه فى يناير سنة ١٨٢٢ وأخذ فى توطيد السيادة المصرية على ولايات السودان ، بينما كانت بعثة الذهب تقوم بأبحاثها دون توفيق ، ثم وصلت الأخبار بما كان من تمرد ، أهل سنار على الجيش فعاد إسماعيل اليها فى فبراير ١٨٢٢

وكانت ثورة أهالى حلفا وشندى بسبب ما كان من سوء معاملة الجنود الأرنؤود للأهالى ، فشقوا عصا الطاعة وتمردوا على السلطة وهاجموا قوافل الأرقاء . . فرحل إسماعيل فورا واستدعى ملك شندى ، وكان يدعى نمر ، فحاسبه وأساء معاملته وقضى عليه بغرامة

من الرقيق ، فخرج نمر متظاهرا بالطاعة مضمرا الشر مصمما على الانتقام (١)

وقد حدث أن دعى نمر إسماعيل باشا إلى حفل فى قصره ثم أشعل النار بينما كان الجنود يرابطون حول القصر ويسدون المسالك فمات إسماعيل وصحبه جميعا ، فلما سمع بأمر هذه المكيدة محمد بك الدفتردار سارع إلى شندى للثأر فخرب البلدة وسفك دماء أهلها انتقاما لمقتل اسماعيل ، ثم وطد أقدامه فى أنحاء السودان وأنشأ مدينة الخرطوم وجعلها قاعدة الحكم

وهكذا تم فتح السودان وعين محمد على حاكما من قبله يسمى حكمدار السودان ووضع النظم والتشريعات الادارية والمالية ، وبدأ السودان يقطع شوطا جديداً وهو فى جامعة الوطن المصرى ، وأصبح وادى النيل من منبع النهر إلى مصبه تحت راية الوحدة القومية ، بعد عناء ومشقة ومجهودات طائلة ودماء مصرية عزيزة روت تلك التربة فأنبتت وحدتها ووضعت تصميمها الذى لا يمكن فصم عراه أو تهديم كيانه

---

(١) جاء فى بعض المراجع ان محمد على كان قد أوصى اسماعيل باللباقة والفطنة ودماثة الخلق التى تغنى عنها الشجاعة ، ولكن إسماعيل لم يحفظ الدرس فأساء معاملة ملك شندى ولطمه على وجهه فأسر له تلك الاهانة وانتقم منه انتقاما مروعا

إخماد ثورة المورة

لم يعد ذلك السيف البتار إلى غمده ، بعد أن قضى على حركة الوهابيين وانتهى من فتح السودان وإنما ظل مشهوراً فقد كان لديه واجبات جديدة دائما ، وقد أريد به فى هذه المرة أن يعبر البحار ليقضى على ثورة نارية

ذلك أن بلاد المورة (اليونان) كانت جزءا تابعا للسلطنة العثمانية يمثل السلطان فيها أحد الولاة وطال عهد هذه التبعية حتى أقبل وقت الحركات الاستقلالية فثابت الأمة اليونانية إلى رشدها وأرادت التحرر من الحكم العثمانى وشبت الثورة فى كل بلاد المورة فاجتذبت عطف الرأى العام فى أوربا وخصوصاً فى روسيا

وقد روى أكثر من مؤرخ أن اليونانيين كانوا أكثر الأجناس الخاضعة لتركيا ولاء وأقربهم منزلة ، وكانوا شبه مستقلين لا يشوب استقلالهم غير هذه التبعية الظاهرية التى يمثلها وجود نائب السلطان وما يدفع إلى الآستانة من جزية وعدد من البحارة ينتظمون فى الأسطول التركى

فلما بلغ اليونانيون مرحلة الرقى والثراء وتاقت نفوسهم إلى الحرية بدأوا ينظمون جهودهم للتخلص من حكم تركيا والحصول على الاستقلال إحياء لمجدهم القديم وإنقاذاً لسمعتهم التاريخية ، وأخذوا يستعطفون الرأى العام فى العالم الأوروبى الذى عطف على هذه الحركة وتنبه إلى ضرورة تحرير هذه المملكة الأوروبية ، وإعادة الحياة الحرة إلى أبناء الإغريق البواسل

وقد أشعل لهيب هذه الثورة فى بلاد اليونان جماعة الاخوان (هيتريا) وهى جمعية سرية بدأت منذ سنة ١٨١٥ تعمل على نشر مبادىء ترمى إلى التألب على حكم الأتراك وتدعو إلى تحرير البلاد وكان للقائمين بهذه الحركة اتصال بقيصر روسيا إسكندر الأول الذى أمدهم بالمال والموارد ، بينما وقفت أوروبا من الوجهة لرسمية موقف الحياد ، فى ذلك النزاع الذى نشب بين الأمة اليونانية والدول العثمانية .. *

وفى شهر مارس بدأت الثورة علانية ، وكان يتولى تحريكها

* أرسل مترنخ إلى البرنس جيكا يقول (استقر الرأى نهائيا على عدم التدخل فى شئون الدولة العثمانية وهذا عمل عظيم . . ومما هو خليق بالذكر فى تاريخ هذا العصر هو أنه لم يرتفع فى مؤتمر فيرونا صوت واحد يدافع عن الاغريق)

— عن كتاب اليونان السياسى لادوارد دريو —

إسكندر إبسلنتى وهو من ضباط الجيش وكان من ياوران قيصر روسيا فأرسلت تركيا جيشاً تمكن من القضاء على الثورة وإخماد الحركة فى مهدها وساعد على ذلك أن روسيا لم تستطع مساعدة اليونانيين بسبب الشواغل السياسية فيها

على أن ذلك لم يكن قضاء نهائياً على الحركة ولم تؤمن عودتها بعد قليل ، فقد كانت الفكرة مختمرة فى جميع الرءوس ، وخصوصا وقد صبغت بالصبغة الدينية وأصبحت جهادا مشروعا يتزعمه الأساقفة وقد حدث أن قاد أسقف بتراس - وكان يدعى جرمانوس - حركة كبيرة فى كالفرنيا ، جعل شعارها « الإيمان ، الحرية ، الوطن » وسرعان ما استجابت البلاد إلى الحركة علانية ، وقام الثائرون بفعال مروعة ضد العثمانيين فى كل مكان واستولوا على كثير من المراكز الرئيسية وأكثروا من الغارات على المواقع التركية فى البر والبحر ثم استولوا على تريبوليتزا مقر الحكم وأعلنوا استقلال اليونان وانفصالها عن السلطة التركية فى شهر يناير سنة ١٨٢٢

فأجاب السلطان على هذه الحركة بإرسال جيش جرار يتولى قيادته خورشيد باشا (الذى كان واليا على مصر قبل محمد على) ولكنه لم ينجح فيما كلف به وباء بالإخفاق وصار هدفا لهجمات الثائرين الذين تضاعفت جرأتهم واشتد بأسهم ولذلك منى الجيش العثمانى

بهزيمة ماحقة وانتحر خورشيد باشد على أثرها ، وهذا بينما نشطت حركة القرصنة فى جزر الأرخبيل واعتدى الثائرون على مراكب الأتراك وأغرقوا عدداً منها ، وبذلك أصبح النفوذ العثمانى مهدداً بالزوال ما لم يسرع إلى إنقاذه سيف مرهف صادق الإنباء

وتلفت السلطان ليبحث عن العون فأشار عليه سفير النمسا بذلك السيف الذى مازالت تقطر منه دماء النصر والفتوح ، فأرسل السلطان إلى محمد على قاهر الوهابيين وفاتح السودان * ، فوجد فيها فرصة مواتية لها ما بعدها وأخذ يستعد استعداد واسع النطاق فى البر والبحر فقد كان عليه أن يواجه للمرة الأولى قوة أوروبية وحركة ثورية ، تنظر إليها أوربا بالعطف والمؤازرة ، وتمدها بالعون والقوة ...

وأصدر السلطان فرمانا يقضى بتعيين محمد على حاكما على كريت ويخوله ولاية المورة ووجد محمد على فى قبول هذا العرض فرصة لتوسيع نطاق حكمه ونشر نفوذه وتثبيت مركزه السياسى حيال تركيا .

---

* يذكر بعض المؤرخين أن التجاء الباب العالى إلى محمد على إنما كان ينطوى على أكثر من معنى واحد ، فالرغبة فى الاستعانة بالجنود المصرية كان يقابلها رغبة أخرى فى إضعاف محمد على — باشتراكه فى تلك الحرب — وحرمانه من المضى فى تنظيم جيشه ومضاعفة قواته

وقد أرخ الجبرتى ذلك الفصل فروى أن الباشا « سافر إلى الأسكندرية لداعى حركة الأروام وعصياتهم وخروجهم على الذمة ووقوفهم بمراكب كثيرة العدد بالبحر وقطعهم الطرق على المسافرين واستئصالهم بالذبح والتقتيل ... فنزل الباشا إلى الأسكندرية وشرع فى تشهيل المراكب المساعدة للدونانمة السلطانية ... »

وقد أنفذ محمد على باشا حملة إلى كريت قوامها خمسة آلاف جندى بقيادة صهره حسن باشا فبلغت الحملة كريت فى شهر يونيو سنة ١٨٢٢ واشتبكت فى قتال كبير أحرزت فيه نصرا كاملا وحققت أهدافها بإنقاذ الحامات التركية المحصورة ، وتضييق الخناق على الثوار حتى سلموا فاستتبت السكينة وخضعت كريت

هذا بينما كانت استعدادات أخرى تجرى على قدم وساق من أجل حملة المورة التى وضع فيها محمد على جانبا من آماله ، ونظر فيها البشير بالنصر وعلو الشأن ولذلك عين ولده إبراهيم باشا - القائد الفاتح - سر عسكر أى القائد العام لجيوش مصر ، فأتيح بذلك لهذا الجندى الموهوب أن يجلى كفايته فى ميدان برقية العالم المتحضر ، وأن يقوم بدور هام يعد أقوى المشاهد الحربية وأعظمها فى ذلك الحين

وكانت الحملة مكونة من سبعة عشر ألف مقاتل وسبعة آلاف

من الفرسان ومدفعية قوية وأسطول ضخم مكون من ٥١ سفينة حربية و ١٤٦ سفينة نقل ، وقد وصف الأسطول المصرى بأنه «الأرمادا» كما وصفت الحملة بأنها رد الشرق على الغرب (حملة نابليون)

وكأنما أراد الزمن أن ينصف البلاد المصرية وشعبها العريق فجعل على يدها الرد العاجل على حملة نابليون القريبة العهد ؛ فأرسل محمد على باشا حملته هذه رد الشرق على اعتداء الغرب

غادر الأسطول المصرى مياه الإسكندرية فى التاسع عشر من شهر يولية سنة ١٨٢٤ فبلغ رودس فى الثالث عشر من أغسطس وهناك التقى بالأسطول التركى الذى يقوده خسرو باشا وهناك بدأ إعداد الخطط المشتركة على أن بين المؤرخين من لم تفته مقاونة الحال بين الأسطولين وأنهما كانا يعطيان فكرة صادقة عن مصر الناهضة وتركيا الآفلة ، وقد ظهرت بوادر الضعف والاستخذاء فى فى صفوف العثمانيين حين تراجعت مراكبهم عند الصدمة الأولى فسبب ذلك هزيمة مشينة ويذكر أحد الضباط الفرنسيين ممن حضروا الوقعة أن الأتراك «نكصوا على أعقابهم ورجعوا إلى مقرهم ، ترتعد فرائصهم ويسكن الرعب جوانحهم وكان فرارهم فى سفائن تجارية مسلحة غرّ ضباطها هذا الجبن فاندفعوا وراء أعدائهم حتى أتو إلى

بوغاز ضيق ثم التحمنا (أى المراكب المصرية) ولكن بعض فرقاطاتنا رأت من الحكمة أن تخرج من المعمعة واستطاع ابراهيم بجرأته وصادق بأسه أن يوقف سيل الاغريق فلما رأى هؤلاء أن أمامهم خصما قويا لم يعملوا له حسابا من قبل هموا بالرجوع وارتدوا ارتداداً يشهد لهم بالبراعة . .»

وأعاد ابراهيم النظر فى الموقف فآثر أن يعود إلى كريت حتى تواتيه الفرصة المناسبة ، وكان قد شعر أن وجود قيادتين للقوات المشتركة كان من عوامل التفكك والاضطراب لأن توحيد القيادة أمر جوهرى لنجاح العمليات - وقد قيل أن قائدا عادياً خير من قائدين كبيرين - ولهذا شكا محمد على ذلك للسلطان فى كتاب بعث به اليه فى ١٣ سبتمبر ١٨٢٤ جاء فيه :

«يؤسفنى أن ما طلبته من توحيد الأسطول كله لم يجب وأن هذا الشرف لم ينله ولدى ابراهيم وليس بخاف أن النصر فى المواقع الهامة لا ينال إذا عهد بالقيادة العليا إلى أكثر من رجل واحد . . ذلك أن اختلاف الرأى لا بد أن يؤدى إلى هذه النتيجة السيئة ، وقد كانت الحوادث الأخيرة مع الأسف الشديد أكبر دليل على صدق هذه العقيدة . .»

وعلى أثر ذلك صدر الأمر بتقليد إبراهيم باشا القيادتين البرية

والبحرية فأصبح القائد الأعلى للحملة المصرية العثمانية

وكانت عودة ابراهيم إلى كريت مدفوعة بعدة أسباب منها تخاذل الأسطول التركى وفراره من كل واقعـة وتضاؤل الأمل فى كسب العمليات البحرية إزاء خصم متمرن على حرب البحار وأعمال القراصنة ... كما قرر إبراهيم باشا الانتقال إلى الميدان البرى ، الذى يجيد فيه العمل والذى سيتقرر فيه المصير

فخمسة الأشهر التى انقضت على إبحار الأسطول من الأسكندرية إنما قضيت فى جهود شاقة ومتاعب لا هوادة فيها ومخاطر تتجدد كل يوم ، وقد ذكر مسيو دوان فى كتابه « الفرقاطات الأولى من أسطول محمـد على » أن ما أبداه إبراهيم باشا فى هذه الظروف من الثبات ورباطة الجأش ما يستوقف النظر ، فإن قيادة أسطول بحرى تصحبه عمارة من سفن النقل لمن المهام التى لا يسهل الاضطلاع بها وأن ابراهيم باشـا فى قيادته عمارة من مائتى سـفينة نقل تقل نحو عشرين ألف رجل من جنود وبحارة قد اضطلع بمثل المهمة التى حملها بونابرت من قبل — مع تفاوت الفرق بين الموقفين — حينما اجتاز البحر الأبيض فى أواخر القرن الماضى بعمارة من ٢٨٠ سفينة تقل ٣٨ ألف مقاتل ، وإذا تذكرنا أن مصر لم يكن لها إلى ذلك الحين أسطول منتظم ولا تقاليد بحرية ولا هيئة من الضباط البحريين

الأكفاء ولا العدد الكافى من البحارة المدربين ، وكان على إبراهيم باشا أن يبتكر وينظم على الفور كل ما يلزم الحملة البحرية من سفن حربية وسفن للنقل ورجال وعتاد ، وأن يروض نفسه على ركوب البحر والقتال بين أمواجه وأهواله .. ، إذا تذكرنا كل ذلك فإنه يحق لنا أن نعجب كيف أن العمارة التى خسرها محمد على أمكنها أن تبقى خمسة أشهر تجوب البحار دون أن تتفكك أوصالها ، وكيف استطاعت أن تثبت أمام الوثبات والهجمات الشديدة التى استهدفت لها وأصابتها من عدو له حظ كبير من المهارة من غير أن تخسر سوى سفينتين حربيتين وعدة نقالات ... ولا شك أن هذه الحقائق تدلنا على مضاء عزم إبراهيم باشا وعلو همته وتطالعنا بما تحتويه نفسه من صفات عظيمة مع مزايا الرياسة والقيادة ، كما أن مواقفه فى ميادين القتال ورباطة جأشه فى مغالبة المحن تدل على شجاعته الكبرى التى لا يسع أى إنسان إلا أن يبادر إلى الإعجاب بها ...

وقد وصف لين پول شخصية إبراهيم باشا فقال « هو رجل لا تفارقه الهيبة ولا حب العدالة ، أمره مطاع ، ثابت قوى العزيمة شجاع رحيم لين العريكة ، ولكنه شديد الحرص على النظام ، يطيعه الناس ويخشونه أكثر من سواه لأن فى يده العقاب ، ومع ذلك التفت حوله قلوب صغيرة ... دائم اليقظة لا يغفل عن الرقابة ، يدهش الناس



ابراهيم باشا « الفاتح »

بسرعة تنقله بين الجند وكثيراً ما ينام على الثلج فى العراء ليضرب بذلك المثل لغيره ، وهو حدب على جنوده يعطف عليهم ويحادثهم ويبث فى قلوبهم الشجاعة، وتراه فى ميدان القتال رابط الجأش لا يفارقه الهدوء وكثيراً ما استعان ببعد نظره وصدق فراسته على كشف ما يبث له من المصايد وما ينصب له من المكائد ...

ولولا جهود إبراهيم لما استطاع والده أن ينجز نصف ما أنجز »

وكان إبراهيم رجل حرب ورجل حكم ، فكان يعمل بقلب المحارب وعقل السياسى ، ويضع خطته على أساس الظواهر العسكرية والمعنوية فى خصومه ، ولذلك أخذ يتتبع أخبار الثورة اليونانية الداخلية التى انتهت بحرب أهلية بين الأحزاب فرأى أن يسرع إلى بلاد المورة منتهزاً هذه الفرصة المواتية ، وفى هذه الأحوال المضطربة التى تضاربت فيها قوى عدوه أقلع بعمارته إلى ميناء (مودون) الميناء الوحيد الذى بقى فى يد الأتراك - وأنزل جنوده إلى البر فى فبراير ١٨٢٥

وبدأت الأعمال الحربية بإنفاذ جيش إلى نفارين وكانت من أهم مراكز الثورة استعداداً فشرع إبراهيم فى حصارها وحدث فى سبيل ذلك قتال طويل الأمد متدفق الدماء دون أن يتم صنع ذلك

الطوق من الحديد والنار الذى أراد أن يحصر فيه المدينة ، وكان استبسال اليونانيين فى نفارين مضرب الأمثال ، فقد كانت معقد آمال الثوار وقاعدتهم المنيعة ، ولذلك جاءتها الإمدادات الوافرة التى قدرت بثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل ، فسارع إبراهيم إلى لقائهم وحدث قتال مرعب ومعركة مروعة أودت بالنجدات اليونانية وقضت عليها ، فخف ابراهيم إلى مشارف نفارين وشدد عليها الحصار وأذاق أهليها ويلات الحرب

ثم أقبل مدد جديد من المتطوعين الشبان ، فقد كانت الثورة تُغذّى بالخطب والأشعار والفصول الحماسية التى تدبجها أقلام شهيرة، وكان المدد الجديد يبلغ تسعة آلاف رجل وجهتهم نفارين لرفع الحصار عن المدينة وطرد الغزاة عن أرض الوطن

وشعر ابراهيم بما جد فى الموقف، ولم يكن قد قضى على روح المدينة المحاصرة ، فأصبح بين نارين، وعند ماتأزم الحال تظهر العبقرية العسكرية ويفتح التاريخ صفحة للقائد الكبير ... ولهذا فإن تصرف إبراهيم باشا فى هذا الموقف وأمثاله لما يحله فى قائمة كبار العسكريين فإنه لم يتخاذل ولم يضطرب ولم يرفع الحصار عن نفارين كى يواجه القوة الأخرى المقبلة ولكنه وضع خطة تشهد له بالحصافة والجسارة ، فقد نظم مدافعه وأحاط بها المدينة ، وترك جزءاً من جيشه لتثبيت

حاميتها ثم خرج ببقية جيشه للقاء الإمداد وأفواج المتطوعين الملتهبين حماسا وعزما ، فأمر جنوده فاحتلت مواقعها ، ونفذ أحدث التعليمات العسكرية من نواحي الإخفاء والوقاية والاستطلاع ، واستخدم المفاجأة كأمهر القواد العصريين وأمر بعدم فتح النيران حتى تصدر الإشارة الخاصة بذلك وكانت الإجراءات ترمى إلى الإمعان فى التستر حتى يمكن مفاجأة العدو فلما أقبلت القوات اليونانية وصارت على مائة ياردة ، أعطيت الإشارة المتفق عليها وفتحت النيران وصبت القذائف وفوجىء العدو مفاجأة تامة أذهلته وأصابته بخسائر فادحة ثم انتهت المعركة وأطل جنود مصر على شراذم الهاربين وأفواج الأسرى ونظروا الميدان الأوروبى تحت أقدامهم غاصا بأشلاء القتلى وجثث الجرحى والأسلحة والمعدات التى دمرت أو أسرت

وقد وصف المؤرخون هذه الموقعة بأنها كانت نصراً مبينا للجيش المصرى ومثلا صادقا على حسن استعداد المصريين للحرب وقوة روحهم المعنوية وبسالتهم فى القتال ، كما كانت شهادة ناطقة بصفاتهم الحربية العالية وتقاليدهم الخلقية فلم ينهبوا ولم يضلوا وإنما أحرزوا انتصارا سريعاً كريما

وعاود إبراهيم حصار نفارين ، وكان قد أدرك أن الحصار

لا طائل من ورائه ما دامت الإمدادات والمؤن تصل إلى المدينة عن طريق البحر فصمم على قطع ذلك الطريق وذلك بأن يستولى على جزيرة أسفاخترياـ قفل نفارين الذى لم يفتح بعد ـ فأرسل إليها الكولونيل سيف مع ١٢٠٠ مقاتل، وحدثت فى سبيل الإستيلاء على تلك الجزيرة معارك خطيرة بسبب ماوقع فيها من صراع عنيف وضحايا عديدة ؛ وكان اليونانيون يدركون أهمية أسفاخترياالتى كانت القفل الأخير الذى يسد آخر أبواب نفارين ؛ وقد حطم إبراهيم ذلك القفل بسيفه وانفتح الباب فعلا ...

أما تفصيل ما حدث فهو أن حامية الجزيرة كانت قد عززت وأمدت بالمدافع والأسلحة ، فلما أقبلت السفن المصرية بدأ التراشق بالمدافع وفتحت النيران من الجبهتين ، ولم تمنع معركة النيران هذه من تقدم الجنود المصرية رغم ما يحيط بها من مكروه حتى بلغت الشاطىء ونزلت إلى البر ، وبدأت معركة عنيفة تلاقت فيها الحراب والبنادق وتصارع فيها الجنود يدا بيد وتبودلت أزمّة المعركة مرة بعد مرة حتى استقرت أخيرا فى يد المصريين ، ورفع العلم المصرى على الجزيرة بعد معركة مشرفة بلغت حظا كبيرا من البسالة والنظام والتضحية .

وبذلك أكملت الحلقة الحديدية حول نفارين برا وبحرا وقطعت

طرق النجدة ، وأخذ ابراهيم يشدد الحصار على المدينة ويذيقها الويلات ، وحدث أثناء ذلك أن هاجم الثوار المراكب المصرية فى مودون ـ وذلك فى شهر مايو ١٨٢٥ وانجلت المعركة عن حريق كبير أحدثته قاذفات اللهب اليونانية ـ الحراقات ـ فالتهبت المراكب المصرية واحترق عدد منها واتصلت النار بالشاطىء وانتقلت إلى المدينة فخربت جزءا كبيرا ، والتهبت مخازن الذخيرة وكان لهذا الحادث وقع سىء ولو أنه لم يؤثر على الموقف الحربى الذى كان قد استقر نهائيا وكان ابراهيم باشا قد أرغم حاميات نفارين على قبول هزيمة مريرة فتراخت قوات الدفاع واستسلمت ودخل الجيش المصرى القاعدة اليونانية الشهيرة مزهوا بأكاليل النصر والبطولة

وانتقل القتال إلى ميناء كلامانا فدارت معارك خطيرة بسبب ما عرف به الجبليون من شجاعة وبأس ولكن فاتح نفارين لم يكن بالذى يمكن صده بسهولة ، كما كان جنوده البواسل قد ثملوا بكأس النصر ، فاندفعوا كالمردة وأذاقوا البلدة الويل حتى استسلمت ، ومضت جنود النصر تجتاز قلعة بعد قلعة وحصنا فى أثر حصن حتى بلغت تريبولتزا عاصمة المورة ومعقل الثوار ومكمن الباقى من الأمل

وكانت البلدة منيعة صعبة المرتقى ، تتحكم فى الطرق الجبلية الوعرة يزيد فى مناعتها أنها كانت مركز المقاومة الشعبية فقد تحصن فيها



« خريطة حروب المورة »

الثوار والأهالى ، واطمأنوا إلى مناعتها فأعدوا فيها ما استطاعوا من قوة . .

وبينما كان إبراهيم يطوى الطريق بجنوده المظفرة ويجتاز المناطق الجبلية الوعرة مثلما كان نابليون يفعل . . كان الثوار قد أنفذوا جيشا عند أحد المضايق - مضيق كورسيتكا - بعيدا عن البلدة ليسدوا الطريق فى وجهه ويتخذوا موقعا دفاعيا يحقق المبدأ القائل بالدفاع بعيدا عن الغرض . . ولكن الجيش المصرى استطاع أن يحدق بقوات العدو وأن يذيقها هزيمة من الطراز الأول فطارت نفوسهم شعاعا وانهارت روح المقاومة الأهلية وأخلى الثوار تريبولتزا ودخلها إبراهيم باشا فاتحا فى ١٣ يونيه ١٨٢٥

وبدأت عمليات تنظيف الميادين وإخماد الثورات وتدمير المقاومات التى كانت تنشب فى مكان بعد مكان حتى تم لإبراهيم باشا بسط نفوذه على شبه جزيرة المورة ، ولم يبق غير الاستيلاء على نوبلى ، عاصمة الحكومة الثورية ، فأخذ يتأهب لغزوها ، ولكن صوتا آخر كان يدعوه وكان عليه أن يلبيه وذلك أن الجيش التركى الذى كان يحارب الثائرين تجاه مسيولونجى قد أصبح فى مسيس الحاجة إلى المساعدة ولم يعد فى إمكانه الإطباق على المدينة بغير عون قوى فأرسل قائده رشيد باشا إلى ابراهيم طالبا المدد ، وبعث إبراهيم

إلى القاهرة برسالة يستأذن فيها والده فى أداء هذا الواجب فأذن له وأمده بحملة جديدة وافية * ، فقد كان الاستيلاء على مسيولونجى يساوى الاستيلاء على نصف بلاد اليونان ، وتقع مسيولونجى فى مدخل خليج ليبانت على أرض منخفضة تمتد إلى سفوح جبلية لا يمكن الوصول اليها من الغرب أو الجنوب تكتنفها أكوام الرمال والمخاوض والجزر المتناثرة ، والأسوار والأبراج التى تطرز الشواطىء

وكان ابراهيم قد فرغ من امتلاك المواقع البحرية فى مودون وكورون ونفارين وتريبولتزا غير أن الأمر لم يكن قد استتب له نهائيا ، فقد كان الثوار ينتهزون انشغاله فى موقع ليغيروا على موقع آخر ، وحالة كهذه لا يمكن علاجها بغير القضاء على الثائرين نهائياً وتعقبهم فى جميع أنحاء البلاد وشل حركاتهم والقبض عليهم وكان هذا يقتضى القيام بعمليات متقطعة متنقلة سريعة

وكان الجيش التركى بقيادة الصدر الأعظم رشيد باشا يحاصر المدينة بغير نجاح رغم هجماته العديدة فغضب السلطان وأرسل إليه يقول : « إما مسولونجى وإما رأسك » فجمع رشيد كل قوته فى هجمة جديدة لم يخرج منها بطائل فكتب إلى ابراهيم باشا فى أوائل

---

* مكونة من ثمانية آلاف جندى وعتاد من المدافع والذخيرة

يناير ١٨٢٦ يدعوه إلى معاونته فى الاستيلاء على المدينة

فلما استجمع ابراهيم أهبته للوثبة الجديدة رأى أن يترك حاميات كافية فى سائر بلاد المورة ، عاهدا بقيادتها إلى سليمان باشا وعبر خليج ليبانت ونزل على مقربة من مسيولونجى فى فبراير ١٨٢٦ فحاصرها براً وبقيت الناحية البحرية بابا مفتوحا لإمداد الثوار من الخارج ثم توجه إلى مسيولونجى وكانت كفة الأمور تبدو فى جانب الثوار الذين كان لهم التفوق البحرى والسيطرة الكافية التى ضمنت توالى وصول الإمدادات إلى المدينة

وشرع ابراهيم باشا فى مهاجمة المدينة فأرسل نصف قواته إليها فقوبلت بنيران شديدة وهجمات مضادة مفزعة فارتدت على أعقابها بعد خسائر شديدة ثم تقدمت بقية القوات فاستدرجت إلى أرض ملغومة وفوجئت بانفجارات هائلة أبادت الصفوف الأولى وردت الباقين إلى حيث أعيد تنظيمهم ثم أخذ فى وضع الخطة الجديدة

وفى فجر ٢٤ أصلى إبراهيم باشا المدينة بألف قنبلة من مدافعه وبعد يومين جدد الهجوم دون أن تتراخى قوات الدفاع ؛ ولم يعد من سبيل الى غزو مسيولونجى قبل أن يقفل البحر عليها وتمنع الإمدادات عنها

ثم بدأت عمليات جديدة جاء ذكرها بالتفصيل فى المحفوظات

الرسمية بسراى عابدين - وثيقة رقم ١٠ - وقد جاء فيها

حوادث يوم ٣ شعبان سنة ١٢٤١ (١٣ مايو سنة ١٨٢٦)

« هناك جزيرة صغيرة تسمى (دولمه) تقع على مسافة نصف ميل من جزيرة أنداليكوس القائمة فى الناحيه العربية من حصن مسلنك وعلى مسافة ٣ ساعات منه . ولما كان الكفار قد لاحظوا أن جزيرة (دولمه) هذه إذا ما حصنت عزز تحصينها مراكزهم فى أنداليكوس فقد أقاموا فى (دولمه) طابيات ركزوا فيها ٦ مدافع ووضعوا هناك نحو ٣٠٠ من رجالهم للدفاع عن الجزيرة ، والواقع أن الجزيرة القائمة بالقرب من أنداليكوس من شأنها أن تعزز مركز أنداليكوس وتحميها على نحو ما اتضح من معاينة موقعها ، ولذا فقد رؤى وجوب الاستيلاء على دولمه هذه تمهيداً للاستيلاء على جزيرة أنداليكوس .

وفى ضحى ذاك اليوم تحرك مولانا السر عسكر من مقر الجيش فى طريقه إلى المكان المقصود

ولما أن وصل الروم إيلى والسرّ عسكر المظفر ومن فى معيتهما من العساكر المنصورة إلى نقطة هناك وجدوا أن القائد البازارجيقلى وعساكره قد تخلفوا فى مكان وعر المسالك تكتنفه المستنقعات وكانوا يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى وهنا أخذ السر عسكر المشار إليه

يستنفر العساكر بصوته الداوى ويحرضهم على مهاجمة الكفار فاندفع الجميع نحور الجزيرة يخوضون عباب الماء والطين. ولما أن أصبحوا على مقربة من الجزيرة راح الكفار يطلقون عليهم نيران المدافع والبنادق وكانت العساكر فى زحفها على الجزيرة قد اجتازت ٣ مستنقات وتوقفت عند المستنقع الرابع القريب من إحدى طابيات الكفار على أن ثمة قوة من عساكر الجهادية كانت تتقدم إلى الأمام وكان عساكر الأناضول وعساكر كريد قد نصبوا أعلامهم عند آخر المستنقع الثالث وأوشكوا أن ينهزموا فى حين كانت عساكر الجهادية التى تتقدم إلى الأمام تقاتل بروح الشجاعة والبطولة وتضحى بنفوسها فى سبيل الدين والدولة

على أن عساكر « الروم » الأناضول وعساكر كريد كانوا إذ ذاك على وشك الانهزام. وقد تخلفوا عن تتبع عساكر الجهادية وحاولوا أن يعودا إلى ناحية البر. وما أن لمح منهم ذلك السرعسكر المظفر حتى امتشق حسامه وصاح بالقوم: لست أنا الذى يولى الأدبار يوم القتال إنما أنا من ترونه يخوض غمار الوغى بين الدم والوحول. ثم نزل عن صهوة جواده وتقدم نحو الماء الموحل حتى غاص فيه إلى عنقه وأخذ يضرب بسيفه بعض العساكر الذين أرادوا العودة إلى البر ويقوى قلوب أهل الإسلام ويحثهم على مقاتلة الكفار

ويعلن أن الذين يتقاعدون عن مقاتلة الكفار ان ينجوا من سيفه .
فثارت الحمية فى نفوس العساكر واعتمدوا على الله وعلى ما وعد به
أهل الإسلام من نصر حيث قال :(وكان حقا علينا نصر المؤمنين)
واستمدوا العون منه سبحانه وتعالى ومن روحانية نبيه الذى خاطب
الله بقوله : (حرض المؤمنين على القتال) وهتفوا جميعهم : الله . الله
واقتحمو الماء فى طريقهم إلى الجزيرة . وبعد أن تخبط معظمهم فى
الأوحال واعتمد البعض الآخر على السباحة بلغوا شاطىء الجزيرة .
وفى تلك الآونة كان حسين بك الذى عهد إليه بمهاجمة الجزيرة من
ناحية البحر قد وصل بالمراكب التى تقل عساكره إلى مسافة ٥٠ خطوة
من طابيات الجزيرة وأخذ يصلى الكفار نيران المدافع والبنادق
ويبث الرعب فى قلوبهم . وإذ ذاك أبدت العساكر القادمة من طريق
البر روح البسالة وساعدتها القوة البحرية فى القتال . وتقدم الأغا
الجوقدار السالف الذكر من الناحية اليمنى بينما زحف البكباشى عثمان
أغا من الناحية اليسرى وهاجموا متاريس الكفار واستولوا عليها .
وعلى أثر ذلك خرجت إلى الجزيرة جميع القوات الزاحفة عن طريق
البر والبحر وأمعنت فى قتل الكفار الذين انهزموا شر هزيمة وكان
عددهم ٣٠٠ كافر فلم ينج منهم سوى ٢٠ كافر إذ أن أكثرهم لاقوا
حتفهم داخل متاريسهم والبعض الآخر ألقى بنفسه فى الماء من شدة

رعبهم على أمل أن يصلوا إلى جزيرة أنداليكوس ، ولكن العساكر تلقتهم بالحراب حيث ذهبوا الى الجحيم . وهكذا تم والحمد لله فتح هذه الجزيرة .

وكان دولة السر عسكر المظفر يرغب فى الاستيلاء على أنداليكوس هذه إلا أن الغزاة كانوا فى حالة تعب من جراء ما لاقوه من الصعوبة فى فتح جزيرة دولمه . وكان لا بد لهم والحالة هذه من الراحة سيما أن الوصول إلى جزيرة أنداليكوس يحتاج الى قوارب ومراكب كثيرة . ولذا أرجىء ذلك الى فرصة أخرى . وقد كتب دولة الباشا السر عسكر إلى دولة محرم بك سر عسكر الأسطول المصرى بشأن هذه القوارب والمراكب المطلوبة لهذه الغايه . وعلى أثر ذلك جمع دولة محرم بك جميع قبطانات السفن التى فى معيته وخاطبهم بقوله : إن هذه المهمة لهى من أجل الخدم التى تقدم للدين المبين المحمدى وللسلطنة السنية فاذهبوا لتضحوا النفس والنفيس فى سبيل الحضرة السلطانية وتبدوا منتهى الشجاعة والإقدام . ولقد أدت به حماسة إلى إرسال قبطان السفينة احسانية التى يركبها وقبطان السفينة ثريا معهما نحو ٣٠ فلوكة وهى مزدانة بالأعلام ومشحونة بجميع لوازم الحرب حيث تولت هى وقوات حسين بك ميرالاى ٨ جى بيادة سالف الذكر تطويق جزيرة أنداليكوس من جميع

جهاتها وراحت تضيق الخناق على الكفار الذين هالهم أمر هذه القوات وأدركوا ألا حيلة غير التسليم ، فأرسلوا يطلبون منحهم الأمان ... »

وفى هذه الوثيقة تتضح روح الامتثال التى كان عليها الجيش المصرى ، وما كان لقائده الكبير من بسالة ونفوذ وقد انتهت المعارك بالاستيلاء على الحصون التى كانت تحمى مسيولونجى وقفل نوافذ البحر ، فبدأ دور العمليات البرية وتشديد الحصار على المدينة فلما تم له ذلك دعا القائد المصرى الحامية إلى التسليم حقنا لدماء لا موجب لإهدارها وإبقاء على منشآت يفضل بقاؤها ، ولكن أهل المدينة — وكانوا مشهورين بالبسالة وحب التضحية — رفضوا ما عرض عليهم وآثروا المـــوت على التسليم ولذلك استمر الحصار وشدّد المصريون على المدينة حتى إذا نفدت المؤن التى كانت القوات المحصورة تعتمد عليها ولم يعد فى الإمكان وصول مؤن أخرى تعرضت المدينة لخطر الجوع وانهارت المقاومة الحربية فطلبوا التسليم على أن يخرجوا بأسلحتهم وعتادهم — فرفض ابراهيم ذلك العرض أكثر من مرة ولذلك أجمع اليونانيون أمرهم على الخروج للقتال وكان عدد سكان المدينة تسعة آلاف منهم ثلاثة آلاف قادرون على القتال ومع ذلك اتفقوا « مدفوعين بشعور حمية فلما

يوجد له نظير فى التاريخ أن لا يبقوا احيـــاء وأن ينتظروا مجىء الأعداء فيجعلون أنفسهم بأنفسهم طعمة للنيران .. »

وأخيراً استقر رأى المدافعين على البدء بالأعمال التعرضية فخرجوا لصد قوات الحصار عن معاقلهم ، فقابلهم هؤلاء بنار حامية شردت جموعهم وحصدت غالبيتهم فارتدوا على أعقابهم وتفرقوا والتجأ بعضهم إلى مستودعات الذخائر ومراكز الدفاع فتمسكوا بها رافضين التسليم مؤثرين الموت على الأسر فعبروا بذلك عن روح وطنيه جبارة وتقاليد عسكريه مجيدة

وانتهت مسيولونجى إلى يد ابراهيم الفاتح فى ٢٣ ابريل ١٨٢٦ بعد قتال عنيف ودماء مراقة وتخريب وتدمير أصبحت المدينة بعدها أطلالا وقد فقد الجيش المصرى ألف قتيل بينما فقد الثوار ستة آلاف .. وبعد هذه الواقعة الكبيرة ارتد إبراهيم باشا إلى المورة

وشرع يعد العدة للقضاء الأخير على الثورة اليونانية التى طال أمدها

ونظرت أوروبا لاهثة وهى ترقب الانتصارات المصرية المتوالية وراعها ما حل بالبلاد اليونانية وأهلها من تدمير وهزائم فلا يمض الوقت حتى يذهب ذلك « الشعب الاغريق » وتسقط اليونان مضرجة بدمائها فيتحكم فيها « الهلال » .. وراح دعاة إنقاذ

أبناء الحضارة القديمة يستصرخون الرأى العام ويحثون أوروبا على الوقوف فى وجه الفاتح المصرى الذى شهّر به فى دعاياتهم ووصف بأنه Atilla الذى يستبيح الدماء ويخرق حرمة القوانين

وكان سقوط ميسولونجى بمثابة فتح الطريق إلى أثينا ثم القضاء على البقيـــة الضئيلة الباقية من المقاومات ، ولذلك ازدادت درجة الاستفزاز وبدأت الحكومات تتقدم بخطوات ثابتة إلى جانب الحركة الثورية

وقد خطت دول أوروبا خطوة صريحة إلى جانب الثوار حين سقطت ميسولونجى وكانت الحركة الاستقلالية قد صادفت تأييدا لم تسمح الظروف السياسية بإظهاره من الناحية العملية وكان المناصرون للثورة من الكتاب والشعراء ورجال الدين يثيرون الهمم ويستصرخون الرأى العام لمساعدة اليونانيين وإنقاذ أبناء الحضارة الإغريقية

وقد بدأ التدخل الروسى فى سنة ١٨٢٥ عندما تولى نقولا الأول عرش روسيا وخشيت انجلترا أن يكون لتدخل روسيا ما بعده لإقامة نفوذها فى بلاد البلقان فرأت أن تدلى برأى فى الموضوع وتفاهمت الدولتان على الحلول المعقولة وقد تمخضت المباحثات فى يناير ١٨٢٦ عن تعهد يضمن لبلاد اليونان نوعا من الاستقلال المقيد ترعاه إنجلترا وروسيا وأن يكون فى اتفاق ولنجتون - نسلرود مجال

لتوقيع ممثل فرنسا، وكأن الدول أخذت تتنافس لنيل شرف الدفاع عن اليونان وكان القضاء المبرم الذى أصاب اليونان فى معركة الأكروبولس (عقب ميسولونجى) قد عجل بوضع الاتفاق فعقدت معاهدة لندن فى ٦ يوليو ١٨٢٧ وفيها رأت الدول الثلاث التدخل فورا فى المسألة اليونانية على أساس استقلال اليونان داخليا مع استمرار تبعيتها لسلطان تركيا وطلبت إلى الجانبين وقف القتال .. وقد اتخذ هذا القرار فى الوقت الذى كانت حالة الثوار تدعو إلى اليأس وتشرف بهم على التسليم فأحدث ذلك تأثيرا معنوياً رائعاً بينما قوبل بخيبة أمل وأسف لدى الباب العالى

ثم جد جديد فى المسألة اليونانية بسبب ما حدث من تنازع بين زعماء الثورة وانقسام الثائرين شيعاً وأحزابا فضربت الفوضى أطنابها واستعرت نار الحرب بين كل زعيم وزعيم وأخذت الأحزاب المتنافسة تتراشق بالمدافع فأريقت الدماء وشاعت الفوضى وعم البلاء ولم تعد فى اليونان سلطة معترف بها بل صارت مباءة للقتلة والمتهورين والقرصان .. وواجه إبراهيم هذه القوى المجرمة التى حرقت كل موانيه مقرراً أن يقضى عليها بغير شفقة وأن يشن حرب المدنية على القرصنة وأعمال التدمير والإتلاف

وكانت إنجلترا وفرنسا وروسيا قد انتهت إلى خطة مشتركة

ترمى إلى التدخل بين تركيا واليونان ولذلك طلب إلى الفريقين إيقاف القتال على قاعدة استقلال اليونان الداخلى مع بقاء السيادة التركية وعرضت الوساطة على الباب العالى حتى إذا رفضها كان للدول المتفقة على معاهدة لندن أن تبدأ التدخل العملى وتباشر استخدام القوة أزاء ذلك الرفض وكان الحلفاء يتوقعون رفض تركيا لهذا التدخل فاستمهلوها شهرا وقرروا استخدام القوة فأبحرت أساطيلهم إلى ميناء اليونان وأنفذت انجلترا أسطولا مكونا من ١٢ سفينة بقيادة الأميرال كودرنجتون إلى بحر الأرخبيل ثم لحق به أسطول فرنسى مكون من سبع سفن تحت قيادة الأميرال ريني ثم قدم الأسطول الروسى وعدده ثمانى سفن بقيادة الأميرال هيون وتولى القيادة العامة للأساطيل الثالثة الاميرال الانجليزى كودرنجتون وقد اتخذ مراكزه بين جزيرتى هيا وترميا ولكن ذلك لم يمنع وصول الحملة المصرية الجديدة إلى أهدافها رغم المحاولات التى أريد بها منع ذلك الوصول

وكان محمد على قد أرسل حملة جديدة فائقة القوة كثيرة العتاد إلى بلاد المورة أقلعت من الأسكندرية فى أوائل أغسطس ١٨٢٧ بقيادة الأميرالاى محرم بك وكانت مؤلفة من ١٨ سفينة حربية مصرية و١٦ سفينة تركية و ٤ سفن تونسية و٦ حراقات و ٤٠ مركبا لنقل الجنود وكانت الحملة مؤلفة من ٤٦٠٠ جندى وقد وصلت هذه التجريدة

الضخمة إلى ميناء نفارين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧ مع أسطول تركى آخر تحت قيادة الأميرالاى طاهر باشا فانتظما مع القوات الأخرى التى يتولى إبراهيم باشا قيادتها العامة فى البر والبحر

ولما أخفقت خطة الأساطيل المتحالفة فى منع الحملة المصرية من الوصول إلى نفارين رأى القائد العام أن تنقل هذه الأساطيل إلى ذلك الميناء لإملاء شروط الحلفاء على إبراهيم باشا وفى يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧ وفد رسول الأميرال كدرنجتون لإبلاغ إبراهيم باشا مطالب الحلفاء طبقا لمعاهدة لندن وما تقرر من وقف القتال ومنع القوات من القيام بأى عمليات حربية أو بحرية

وقد نظمت عدة اجتماعات اتفق فيها قواد الأساطيل المتحالفة على أن يوضحوا لإبراهيم باشا قرارات الحلفاء وما تنطوى عليه من خطر ماحق لقواته إذا لم يؤخذ بها ويروى المؤرخون أن إبراهيم كان ثابتا رزينا فى مقابلاته وأحاديثه وأنه كان موضع الإعجاب فلم تأخذه الرهبة ولم يضعفه إجماع ثلاث دول عظمى على مناوأته وإنما اختط طريقا يليق بفطانته السياسية ولا ينقص شجاعته وتقاليده العسكرية فأرسل إلى الآستانة والقاهرة يطلب رأى أصحاب الرأى وبقى هو فى ميدانه جنديا باسلا ينتظر الأمر فيصدع به فورا

وقد جاء فى مذكرة أمير البحر سير إدوارد كودرنجتن عن

الاجتماع الذى عقد فى نوارين مع إبراهيم باشا يوم ٢٥ سبتمبر ١٨٢٤ ما يأتى : بدأ أميرا البحر حديثهما بأن قالا لإبراهيم أنه على أثر المعاهدة المعقودة بين انجلترا وفرنسا وروسيا أصبح واجبا مفروضاً عليهما أن يمنعا جميع الإمدادات التى ترسل بطريق البحر ضد بلاد اليونان . . . وقرءا له بالتفصيل ما عندهما من التعليمات فأجاب إبراهيم بأن أميرى البحر يعرفان من غير شك أنه جندى مثلهما وأن إطاعة الأوامر فرض واجب عليه كما هى فرض واجب عليهما وأن الأوامر التى لديه تحتم عليه أن يهاجم وأن واجباته مقصورة على العمل فقط وليس المفاوضة ولذلك يفوض الرأى لرئيسه الأعلى

ولم يفت إبراهيم ما تنطوى عليه نيات الحلفاء وخططهم فقد لاحظ أنهم يقصدونه دون اليونانيين ويفرضون عليه من التعليمات والأوامر ما لا يفرضون على أعدائه ، فلم يكونوا حكاما صادقين وكان سوء النية ظاهراً فى تصرفاتهم فقد تركوا اليونانيين أحراراً فاستمروا على أعمالهم العدائية فاستفحل أمرهم وأخذوا يهاجمون الحاميات المصرية ، فالهدنة التى أرادها الحلفاء قد أصبحت بينهم وبين ابراهيم أما اليونانيون فقد استمروا على فعالهم المنافية للهدنة وحاول ابراهيم باشا أن يحول دون وقوع الكارثة فكان يشكو إلى

الأميرال كدرنجتن فلم يلق إجراء فعليا من جانبه كما ذكر للأميرال ريني ، أنكم تطلبون مني وقف كل حركات القتال ، وفي الوقت نفسه تتركون الأروام يفعلون ما يشاءون ، أن هذا ليس من الأنصاف في شيء .

وكان إبراهيم باشا مخلصا في تنفيذه لشروط الهدنة ولم يفكر في نقضها قبل أن ينقضها أعداؤه فلما يئس من عدالة المراقبين وخشي على قواته التي يهاجمها الثوار ، أنفذ حملة إلى باتراس لإنقاذ الحاميات المصرية فأرسل كدرنجتون انذاراً إلى إبراهيم باشا فاضطر للعودة إلى نفارين حيث جاءت اليه أوامر محمد علي باشا بالتزام خطة السلم وتجنب التحرش والاصطدام حتى تصل التعليمات النهائية من الاستانة ، ولهذا قرر إبراهيم باشا اتخاد خطة الدفاع في نفارين

وقد أجاب أميرا البحر أنهما يدركان ما يشعر به رجل شجاع مثله في هذه الظروف وذكراه بأنه إذا خرج إلى عرض البحر متحديا تحذيراتهما الودية فأنهما مضطران إلى تنفيذ ما لديهما من الأوامر فأجاب إبراهيم أنه يتعهد بوقف جميع العمليات الحربية التي تقوم بها القوات البرية والبحرية المكونة لحملة الاسكندرية حتى يتلقى رداً من الآستانة والأسكندرية، ووضع يده على صدره وقال

إنه وعد مقدس غير إننى لا أرى من العدل أن تفرضا علىّ ذلك وتسمحا لليونانيين بأن يواصلوا أعمالهم العدائية

وتوجد نقطة دقيقة فى هذه المذكرة كانت سبب أحداث جسيمة فيما بعد وهى ناتجة عن سوء فهم فقد كان إبراهيم باشا يعتقد أن ما حرم عليه هو استخدام قوات « حملة الاسكندرية » وبذلك رأى أن له الحق فى أن يعالج المواقف الناشئة باستخدام أى قسم من قواته عدا « القوات البرية والبحرية المكونة لحملة الاسكندرية ... »

هذا بينما فهم أمير البحر البريطانى أن الاتفاق يشمل جميع السفن التركية والمصرية

ولذلك فعندما بعث ابراهيم باشا ببعض قواته فى كلماتا وأخذ يستعد لمهاجمة مانيا أرسل اليه أمراء البحر الثلاثة أن « هذه الأعمال تناقض شروط الهدنة التى وعدتم سموكم بشرفكم أن تحافظوا عليها .. »

أما ما حدث بعد ذلك فكان موقعة نوارين

ففى العشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٢٧ دخلت سفن الأساطيل الثلاثة المتحدة ثغر نوارين

وكانت السفن المصرية والتركية مصطفة فى ثلاث قولات

يتكون منها أنصاف دوائر حول مدخل الميناء ، وكانت بعض السفن الحقيقية من قاذفات اللهب تشترك فى الخطـــة الدفاعية من استحكامات نفارين وبطاريات المدفعية

وانقضى يوم ١٩ أكتوبر وقد تم فيه وضع الخطة لاقتحام البوغاز (وتدمير العمارتين المصرية والتركية) ومرت ثلاث بوارج إنجليزية ثم استقرت فى الأماكن التى عينت لها فأرسل الأميرالاى محرم بك قائد الأسطول المصرى رسولا إلى البارجة آسيا (مركز قيادة أمير البحر البريطانى) يطلب إلى كودرنجتون أن يمنع أساطيل الحلفاء من الرسو فى نفارين فأجابه قائد الأساطيل أنه لم يأت ليتلقى أمراً بل ليلقى أوامره

ورست مراكب الحلفاء فى مواجهة المراكب المصرية والتركية ولم يعد هناك ما ينقذ الموقف من كارثة جلىّ

وكان أسطول ابراهيم أكثر عدداً ولكن أقل استعدادا فقد كان لديه ٦٢ سفينة مقابل ٢٧ للحلفاء ولكن قوة الضرب والتفوق فى النيران والقيادة كانت فى جانب الحلفاء الذين كان لهم فى المعركة عشر بوارج مقابل ثلاث للمصريين ، وقد تم لسفن الحلفاء دخول المرفأ وإحكام الحصار حول أسطول إبراهيم

ويقول الأميرال كودرنجتون فى تقريره عما حدث يوم ٢٠

اكتوبر ١٨٢٧ « لقد أمرت بأن لا يطلق مدفع من سفننا إلا إذا أطلق الترك مدافعهم أولا ، وقد مرت البوارج الإنجليزية أمام البطاريات ورابطت فى أماكنها من غير أن تقوم بعمل عدائى ولكن لما أرسلت البارجة دارتموت قاربا من قواربها إلى إحدى الحراقات أصيب الملازم فتزووى وبعض بحارتها بطلقات من بنادق الأعداء فأجابت البارجتان دارتموت ورسيرين بإطلاق نيران دفاعية من البنادق على العدو وعلى أثر ذلك أطلقت إحدى البوارج المصرية قذيفة من أحد مدافعها على سفينة القائد فرد عليه بالمثل ولم يمض إلا قليل من الزمن حتى حمى وطيس القتال واشتركت فيه جميع السفن .. »

وحدثت معركة طاحنة تجاوب فيها الطرفان الضرب العنيف واستعر القتال فى ذلك الميدان الرهيب فأصبح أتونا من نار وانقلب البحر دركا سحيقا تدفن فيه السفن والرجال واستمرت المعركة أربع ساعات لا يهدأ لها أوار ثم خيم الهدوء وانقشعت سحب الدخان ثم انفرج الموقف عن هزيمة تامة للقوات التركية المصرية التى خسرت جميع مراكبها وخسرت ثلاثة آلاف قتيل وعددا من الجرحى فى مقابل ٤١٠ من الحلفاء بين قتيل وجريح

وقد حارب المصريون ببسالة فائقة مع أنهم فوجئوا بالحرب وعلى الرغم من تفوق الأعداء عليهم وسابق خبرتهم فى الحروب

وكانوا كلما جنحت منهم سفينة وعجزت عن القتال أشعلوا النار فيها حتى لا تقع فى أيدى الأعداء ، وبذلك فقدت مصر أسطولها العزيز بعد ما تكبدت فى سبيل تكوينه ما تكبدت من وقت ومجهود وأموال

وكان إبراهيم باشا بعيداً عن الميدان حينما حدثت هذه المعركة المشئومة وسمع بما حل بأسطوله بسبب خطأ موبق وفى هذا دليل على أنه كان أمينا على تنفيذ عهده فلم يستعد لمحاربة الحلفاء وإلا لكان على رأس أسطوله فى القتال ولما غاب عن نوارين فى ذلك الوقت العصيب .

وعلى الرغم من هذه الكارثة التى إصابت الأسطولين المصرى والتركى فإن تركيا لم توافق أو تسلم بوجهة نظر الحلفاء وأصرت على رفض مطالبهم وطالبت بتعويض ما حدث لأسطولها فلما وقفت ذلك الموقف العنيد من الحلفاء أعلنت روسيا عليها الحرب وأرسلت فرنسا جيشاً لإجلاء المصريين والترك عن اليونان

وقد انتهت الحرب الروسية التركية بعقد معاهدة أدرنه التى سلمت فيها تركيا بمعاهدة لندن فاعترفت باستقلال اليونان استقلالا داخليا مع بقاء السيادة الرسمية لتركيا . . ثم انتهى الفصل اليونانى من موضوعنا

أما إبراهيم باشا فعلى الرغم من الأسى الذى شعر به أزاء نكبة أسطوله فإنه لم ير فى ذلك مدعاة لإنهاء القتال ، فأرسل إلى محمد على

ينبئه بأمر الكارثة البحرية وأنه يعمل على تلافى آثار الهزيمة ويستعد لمواصلة القتال ، وقد طلب إرسال المدد لا سيما السفن ، وكان جيشه فى ذلك الوقت ١٢ ألف جندى نظامى ، وأربعة آلاف غير نظامى وألف فارس ومؤن تكفى أربعة أشهر

وكان سليمان باشا قد احتل تريبولتزا وكان إبراهيم يتقدم نحو كليبوبوليس دون أن يعنى بالمسائل الدبلوماسية فقد كان يراها من اختصاص والده ومن اختصاص السلطان ، أما هو فكان جندياً يعرف أن واجبه هو القتال بشجاعة وإلى آخر طلقة

أما محمد على باشا فكان دائم الاتصال بنبض أوربا الدبلوماسى يباحث السفراء ويدرس نيات الدول المتحالفة ، وخرج من مباحثاته ومشاوراته بضرورة الكف عن القتال بعد ما فهم من نيات البلاد المتحالفة وبعد ما حلت الكارثة بأسطوله وانقطعت المواصلات البحرية بأيدى الحلفاء فلم تعد ثمة مصلحة للاستمرار فى الحرب كما أنه لم يجد اضطراراً إلى التقيد بسياسة تركيا والسير فى ركابها ، فقد جاءت الفرصة المواتية ليتفق مع الحلفاء رأساً ولكى يصبح لمصر المستقلة مركز شهير وقد تم الاتفاق بين الحلفاء ومحمد على فى أغسطس سنة ١٨٢٨ على إخلاء المورة تحت الشروط الآتية :ـ

(١) يتعهد محمـــد على بإعادة الأسرى اليونانيين وتحرير من بيع منهم فى مصر

(٢) يتعهـد الأميرال البريطانى بإرجاع الأسرى المصريين وإعادة السفن المصرية التى أسرت

(٣) تخلى الجنود المصرية المورة وينقلهم محمد على بسفنه إلى مصر

(٤) تترك الحرية لليونان المقيمين بمصر فى البقاء أو العودة

(٥) لا يجوز لإبراهيم باشا أن يترك فى المورة عددا من العساكر يزيد عن ألفين ومائتين للمحافظة على مودون وكورون ونفارين وباتراس وكستل توريره أما المواقع الأخرى فتخلى فوراً

وقد تم تنفيذ هـذه الشروط وعادت القوات المصرية فى شهر أكتوبر سنة ١٨٢٨ بعد هذه الحملة المجهدة والقتال والفعال الحربية الخالدة والمتاعب والضحايا والنفقات

وإذا كانت مصر قد خسرت فى حملة اليونان ثلاثين ألفاً من الجنود وأنفقت ٧٧٥ ألف جنيه وفقدت أسطولها البحرى فقد كسبت مركزا دوليا معترفا به ، وفاوضت الدول المتحالفة رأساً بغير وساطة تركيا ، وظهرت شخصية مصر الدولية وأصبحت دولة مستقلة فعلا عن تركيا خصوصا بعد اتفاقية أغسطس سنة ١٨٢٨ وهى أول وثيقة تحدد مركز مصر السياسى فى عهد محمد على



سليمان باشا « الفرنساوى »

الحرب السورية الأولى

انتهت حملة بلاد اليونان بعد حرب مريرة وجهود مضنية وانكسار بحرى ودماء مراقة ، وانتهت بغير مكافأة كريمة من الباب العالى للرجل الذى ضحى برجاله وأسلحته ومعداته لخدمة تركيا وإنقاذ سمعتها ، ولم يزد نصيبه مقابل ذلك كله على إسناد ولاية كريت إليه وهى جزيرة ثائرة لا سبيل إلى إخضاعها ولا نفع من السيطرة عليها

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد بل كان واضحاً أن العلاقات التركية المصرية لا تخلو من أسباب الخداع ، فكان السلطان يغار من قوة محمد على التى كانت فى ازدياد ، وكان وهو يدفع به إلى ميدان الحرب اليونانية إنما يرمى – إلى جانب الاستفادة من معاونته – إلى شغله فى تلك الحرب عن الاستمرار فى تنمية قوته ، وإلى تدمير جزء من قواته ومعداته ، كما كان يترقب الفرصة التى يسدد فيها ضربته فيقصيه عن حكم مصر ويتخلص من منافسته نهائياً

أما محمد على فقد ذهب المؤرخون إلى ناحيتين فى تحديد أهدافه فرأى البعض أنه كان يشعر بفساد أداة الحكم فى تركيا وأن حكما

كهذا مآله الانهيار وساءه أن يقضى على هذه الأمبراطورية الإسلامية فتمنى أن يحل محل السلطان وأن يسيطر على هذا الملك الواسع حتى لا تتصدع أركانه أو يضعف شأنه ، ويقول أصحاب هـذا الرأى أن محمد على كان يتمنى ذلك ولـكنه كان ضعيف الأمل فى تحقيقه لأن حالة الضعف كانت قد تسربت إلى عمق لا رجاء معه فى إنقاذ الأساس من التآكل والانهيار

هـذا بينما يرى عدد من المؤرخين أنه كان يحلم بأمبراطورية مصرية فتيـة تستند إلى القوة وتضم مصر وبلاد العرب وسـوريا والسودان فتحتل بذلك مكان تركيا فى الوجود وتظفر بمكانة دولية عالية وتساهم بنصيب ملحوظ فى سياسة العـالم وتقف إلى جانب الدول الأوروبية الـكبرى

ولا غرو أن طمح محمد على إلى ذلك فقد كان يشعر بضعف تركيا وفساد أداة الحـكم فيها وكان شـديد الثقة بقدرته وكفاية رجاله وصلاحية النظم التى أدخلها فى حكم مصر ومهـارة جيوشه وقواته البحرية وخبرته بالسياسة والحرب ، وكان يرى أن حدود مصر الطبيعية يجب أن تكون عنـد طوروس وكاشف السلطان بذلك وطلب اليه أن يمنحه ولاية سوريا جزاء لمـا بذله من تضحيات فى حروب المورة فلم يجبه السلطان الى طلبه ، فلم تعد هناك مندوحة من

الالتجاء إلى سيفه ، ولم تكن الحرب اليونانية قد أضعفت عزيمة محمد على مع ما خسر فيها من قوات وعلى الرغم من تدمير أسطوله ولكنه كان حاكما بصيراً وقائداً حكيما أخذ فى زيادة جيشه وبناء أسطول جديد بهمة عالية ... وأصبح الجيش والأسطول جاهزين فى خريف ١٨٣١

ولم تكن فكرة ضم سوريا إلى مصر وليـــدة تلك الفترة التى أعقبت الحرب اليونانية ولكنها كانت مطمحا قديما لمحمد على منذ ثبت فى ولاية مصر وقضى على الخصوم وانتهى من الارتباكات الداخلية حتى أن بعض دوائر الآستانة كانت تظن أن حملة محمد على إلى بلاد العرب قد تخترق الصحراء إلى سوريا بدلا من الحجاز

كما ثبت فيما أورده المؤرخون أن محمد على قد طالب بهذه الولاية فعلا أثناء حربه فى بلاد العرب وكانت حجته فى ذلك حاجته إلى الإمدادات لإنهاء الحرب الوهابية ، وقد ذكر قنصل فرنسا فى مصر فى تقرير بعث به إلى حكومته عام ١٨١١ « أن محمد على يطمع فى ولاية سوريا وقد قال يوما أنه لا يستبعد أن ينالها مقابل مبلغ من المال يدفعه لخزانة السلطان » كما ذكر الدكتور كلوت بك فى مذكراته « إن ضم سوريا كان ضرورياً لصيانة ممتلكات الباشا ، فمنذ تقرر فى الأذهان إنشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل تفيد المدنية فائدة عامة وجب الاعتراف بأنه لا يمكن إدراك هذه الغاية إلا بضم سوريا إلى مصر . . »

وقد ظل محمد على ينتهز الفرصة حتى جاءت با كثر من وجه يدفعه إلى العمل وأ كثر من سبب يدعوه إلى امتشاق الحسام

وكانت تركيا قد خرجت من الحرب اليونانية ثم من الحرب الروسية مقصوصة الجناح فقدضاعت بعض ممتلكاتها وتقاص نفوذها وزادها ضعفا ما طرأ على حالة الجيش التركى من انحلال بعد إلغاء فرقة الإنكشارية

لم يكن أهل سوريا محبين للحكم العثمانى بل كانوا يتمنون الخلاص منه لكثرة ماعانوا من المساوىء والمظالم وبذلك لم يعد يضرهم تغيير ذلك الحكم ، بل إن رجال لبنان وأمراء نابلس وطرابلس كانوا يعضدون محمد على وكانوا عونا له فى غزوته الكبرى ...هذا من ناحية الأطماع والتصميمات . أما السبب المباشر فقد كان وحده كافيا للشروع فى ذلك الزحف على سوريا والانتقام من عبدالله باشا بسبب موقفه العدائى من محمد على

وكان لمحمد على يد سابقة على والى عكا فقد سعى إلى تثبيته فى الولاية حين غضب عليه السلطان ، ولكنه لم يحفظ ذلك الجميل وكان رجلا كبير المطامع قوى النفوذ ، يستقل بولايته ويمد سلطانه إلى فلسطين ويسعى لضم ولاية الشام وينافس محمد على فى أطماعه وبذلك بذرت بذور الشقاق ولم يعد الموقف يتسع لهما معا

وقد طلب محمد على من والى عكا دفع ١١ مليون قرشا وإعادة المهاجرين من مصر وعدم السماح بالهجرة إلى عكا فرد عليه عبد الله ردا جافا تحدى فيه محمد على بل شهر السيف فى وجهه وجاء فى رده « إنى مثلك وزير لمولانا وليس من حقى أن أمنع الرجال المخلصين لمولانا المعظم من الانتقال من مصر إلى الشام» وبذلك وضحت نيات حاكم عكا ولم يعد من سبيل لتلافى الحرب

وفى التاسع والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٣١ تحركت الحملة فقاد إبراهيم باشا يكن الجيوش البرية فى طريقه إلى حدود سوريا بينما تحرك الأسطول المصرى من الاسكندرية حاملا إبراهيم باشا سر عسكر الجيش ومعه أركان حربة وقوة من الجيش وعدد من المدافع والمؤن والذخيرة . فى الطريق إلى ثغر يافا ، وكانت حملته على سوريا مؤلفة من ثلاثين ألف مقاتل وأسطول مكون من ٦ سفن حربية و١٧ سفينة نقل تحت إمرة الأميرالاى عثمان نور

وفى حيفا التقت الجيوش البرية بالحملة التى جاءت عن طريق البحر وأعدت قاعدة التحركات العسكرية وبدأ منها الشروع فى الزحف على عكا .

واتخذ إبراهيم حيفا معسكرا عاما لقيادته وجعلها قاعدة العمليات وهناك انضمت إليه قوات العرب التى كانت مترددة بين الفريقين ،

كما انضم إليه رجال الدين من المسيحيين — وقد كان لهم نفوذ كبير فى الشام ، ويرى بعض المؤرخين أن هذين العاملين السياسيين كان لهما أثر فى فتح الشام لا يقل عن أثر العمليات الحربية

بلغت القوات المصرية أبواب عكا ، المدينــــة ذات الشهرة الحربية الذائعة التى صدّت نابليون وانفردت بشهرة الثبات أمامه وقد جعلها عبدالله قلعته الحصينة وزادها مناعة وقوة وجعل فيها ٣ آلاف مقاتل يدافعون دفاع المستميت

وقد أرسل سر عسكر الجيوش المصرية إلى والى عكا يطلب اليه إجلاء النساء والأطفال قبل أن يبدأ هجومه على المدينة فلم يستمع عبدالله الى ذلك ، وكان إبراهيم قد ضرب نطاقا حول المدينة منذ السادس والعشرين من نوفمبر وبدأ يشدد عليها الحصار برا وبحرا ، وأمطرتها مدفعية السفن ومدافع الميدان بوابل من قنابلها فجاوبتها مدافع الحصون بنار مماثلة وأصيبت فى ذلك القتال عدة سفن مصرية فتراجعت الى الإسكندرية وانتفت المحاولات التى أراد بها إبراهيم باشا أن يأخذ المدينة عنوة واستعصت عليه طيلة ثلاثة أشهر ..

أما تركيا فكانت تنظر الى هذه الحملة باستياء فقد أقدم محمد على عليها دون أن يرجع إلى السلطان ، فأرسل إليه السلطان مندوبا يطلب اليه عدم الاستمرار فى الزحف وأن يوقف الأعمال الحربية فورا فتظاهر

محمد على بالطاعة وأخذ يماطل فى الجواب بينما كان إبراهيم ينهب الأرض بجيوشه ويشدد الحصار على عكا فلم تر تركيا بدا من مقابلة ذلك الاعتداء بمثله فأرسلت جيشا قوامه عشرين ألف مقاتل تحت قيادة عثمان باشا والى طرابلس وعهدت إليه رفع الحصار وأصدر السلطان أمرا يرمى فيه مصر بالمروق ويعلن حصار ثغورها وأصدر فى الرابع من مايو فرمانا بتجريد محمد على من ولاية مصر وإباحة دمائه ودماء إبراهيم باشا

وكانت أقوى الهجمات على المدينة تلك التى شنها إبراهيم باشا فى التاسع من شهر مارس سنة ١٨٣٢ فهز بها قلاع المدينة دون أن ينال منها منالا ، وزاد الموقف سوءاً تقدم الجيش العثمانى لتخليص عكا وفك حصارها فاستقر رأى إبراهيم على ترك قوات كافية لتثبيت المحاصرين بينما يزحف بمن بقى ليواجه العدو الآخر قبل أن يصل إلى ميدان المعركة

على أن ذلك الجيش الذى أنفذه السلطان تحت قيادة عثمان كان قد مُنى بما يشبه الهزيمة فى طرابلس حينما هاجمها ثم رد على أعقابه فعاد إلى محاصرتها والضغط عليها ، وكاد أمرها ينتهى اليه لولا أن بادر إبراهيم إلى نجدتها وأسرع فى زحفه الموفق عليها فارتدت عنها قوات العثمانيين

وكأنما كان إبراهيم يلقى الرعب فى نفوس أعدائه وكأنما كان اسمه وسمعة جيشه بشير الفوز فى حملاته فقد انسحبت القوات التركية وأمعنت فى انسحابها ، ولم يندفع إبراهيم فى إثر هذا الانسحاب قبل أن يتزود بحاجات جيشه من الميرة والذخيرة فعاد إلى بعلبك ، وفى الطريق عاد الجيش التركى الى مهاجمته ، فانقض عليه إبراهيم فى سهل الزراد وأصابه بضربة قاصمة

والتكتيك الذى اتبعه إبراهيم فى هذه المعركة جدير بالتسجيل والملاحظة فقد ظهرت فيه ضروب المهارة ومخادعة العدو ودقة الترتيبات ، ذلك أن الجيش المصرى اصطف فى صفوف متوالية ، أما مدفعيته فقد نظمت خلف جنود المشاة حتى لا يشعر العدو بمكانها وعند ما تقدمت قوات الأتراك مطمئنة إلى أنها تهاجم المشاة فحسب أخذت المدافع تطلق نيرانها الرهيبة بين دهشة المهاجمين الذين أذهلتهم المفاجأة وحصدتهم النيران وتلقوا هزيمة مكدرة تفرق على أثرها شملهم وضاعت مقاليد الأمور من أيديهم فارتدوا نحو حماة ..

وأخذ إبراهيم يرسم الخطة للأعمال المقبلة ، وتأتيه العيون بالأخبار فعلم أن عثمان باشا قائد القوات التركية قد أرسل فى طلب الإمداد من الآستانة فلا يمكنه معاودة القتال قبل شهرين .. وإذن فليتجه إبراهيم إلى عكا وهو مطمئن أن جيش عثمان باشا لن يلحق به ...

وفى ٢٣ مايو سنة ١٨٣٢ عاد إبراهيم إلى عكا فشاد حولها حلقة من قوات الحصار براً وبحراً فترددت وتزلزلت أركانها ولحظ القائد العام منها ذلك فشهر سيفه وهدّد كل جندى يحاول النكوص على عقبيه برمى عنقه ثم دفع بالجنود الى الأمام وما زال بهم حتى اتخذ لهم مكانا فى الثغرة .. وجاء المدد وبينما كان القسم من العساكر يصد العدو بإطلاق البنادق عليه كان القسم الآخر مشتغلا بإنشاء استحكام للدفاع، وحدثت على أثر ذلك معركة طاحنة، وكان الطرفان يقاتلان ببسالة وحمية ويتبادلان المواقع ، واستمر القتال طول اليوم ثم تراخت قوات الدفاع وجنحت الى الاستسلام بعد أن ذاقت مرارة الهزيمة ولاقت جم الخسائر فكفت عن القتال وسلم عبد الله المدينة فى المساء

وبذلك وقع حدث تاريخى فإن هذه البندقة التى استعصى كسرها على نابليون قد سُحقت فى يد إبراهيم فلا عجب أن ذاعت شهرة الواقعة وأعلت قيمة الفاتح ونشرت صفحة تمجيد وفخار للجيش المصرى

وقد كان سقوط عكا هزيمة مكدرة للسلطان فأدرك ما تتعرض له أملاكه وهيبته من خطر حين تتقدم جيوش مصر ويكتب لها النجاح فى غزواتها ولهذا قرر أن يجابه الموقف بأقصى ما يستطيع من قوة فحشد جيشا كبيرا مكونا من ستين ألف وأسطولا ضخما

قوامه خمس وعشرون سفينة وعهد بالقيادة العليا إلى سردار أكرم « حسين باشا » القائد الكبير ووعده بولاية مصر وكريت إذا قهر محمد على وخلّصه منه إلى الأبد

وفى أوائل شهر يوليه ١٨٣٢ كان الجيش التركى قد بلغ أنطاكية وهناك بدأ وضع الخطط وتنظيم العمليات الحربية ، وقد استقر رأى القيادة على أن يتقدم جزء من الجيش بقيادة محمد باشا والى حلب لكى يتجه إلى حمص فيعسكر بها ويحصن قلاعها

وأرسل إبراهيم باشا عيونه وأرصاده لتأتيه بالأخبار فاذا هو واقف على أسرار الخطة التركية وعالم بأمر القوة التى تتخذ حمص مركزا دفاعيا فوضع خطته فورا وكانت تقضى بالتقدم إلى حمص والإجهاز على القوات الموجودة فيها ثم التقدم إلى الشمال لمهاجمة بقية الجيش العثمانى .

وكان الجيش المصرى حين وصل إلى حمص وواجه معسكرات الأعداء يبلغ ثلاثين ألف مقاتل ، وهناك كانت أوضاع الفريقين على النحو الآتى :

الجيش التركى يتخذ مواقعه جنوب البلدة فى ثلاث صفوف ، يشتمل الصف الأول على جنود المشاة والثانى من المشاة والفرسان والصف الثالث من جنود غير نظامية ، وكانت المدافع تحمى أجناب هذه الصفوف

واتخذ الجيش المصرى مواقعه فى مواجهة الجيش التركى على ثلاثة صفوف أيضا يشتمل الصفان الأولان على جنود المشاة تحف بهم من اليمين واليسار قوات من الفرسان بينما انتظمت خلفهم فى صف ثالث قوات احتياطية من الفرسان والمشاة تحمى أجنابها من فرسان العدو ، أما المدافع المصرية فوضع قسم منها فى الأمام ، بمجموعة فى الوسط ومجموعة فى اليمين وأخرى فى اليسار ووضعت بمجموعة بين الصفين الثانى والثالث

وهذه الأوضاع والخطط إنما تنبىء بنتيجة المعركة سلفا فهى تحدّث بالدقة فى الترتيب والقدرة فى وضع الخطط والكفاية فى القيادة وزاد عن ذلك أن المبادأة كانت فى يد إبراهيم باشا الذى سارع إلى العمل وأمر بالهجوم قبل خصمه ، فقاد كتائب الفرسان فى حركة التفاف ممتازة حول ميسرة الأتراك فشتت ذلك الهجوم فرسان الأتراك وأنزل بهم هزيمة قاصمة ثم تقدمت قوات من المشاة المؤيدة بعدد من المدافع واشتركت مع الفرسان ضد فرسان الأتراك فأنزلوا بها هزيمة منكرة هذا بينما هجمت المشاة فى الوسط وحطمت قوة ذلك الجناح فارتد إلى الوراء ارتداداً مضطرباً عاثراً وتخلى عن مواقعه

ثم تحركت قوة من ميسرة الجيش المصرى فاتخذت مكانا

جديداقبالة ميمنة الأتراك وقطعت الطريق عليها وثبتت قواها وحجزتها
عن العمل وبهذا زاد الموقف سوءاً على الأتراك وانفلت زمام الأمور من
أيديهم وكانت المدافع المصرية تدمر مواقعهم وتسحق قواتهم،
وأخيرا تولى قائدهم إجراء عملية يائسة إذ استجمع قوته فى هجمة قدّر
لها الإخفاق التام ونجم عنها هزيمة مريرة وخسائر بالغة فحلت الكارثة
الحقيقيـــة فى المعركة وتراجعت القوات التركية أو فرت
على غير هدى بعد اندحار مشين، وقد بلغ عدد الأسرى ٢٥٠٠ وأخذ
الجيش المصرى ٢٠ مدفعاً وجانبا كبيرا من الذخائر والمهمات
وانتهت المعركة ودخل إبراهيم باشا حمص واحتلت قواته حصونها
ولم يحدث من القوات التركية المنهزمة أى هجوم مضاد وبذلك صار
مفهوما أن هزيمتها كانت كاملة

وقد أحصيت خسائر الجيش العثمانى بألف قتيل و ٢٥٠٠ أسير
أما خسائر المصريين فى المعركة فكانت ١٠٢ قتيل و١٦٢ جريح وتعد
معركة حمص أول معركة كاملة خاض غمارها الجيشان المصرى والعثمانى
بكامل الاســـتعداد والأسلحة، فكانت بذلك نصراً للقوات
المصرية ونظمها وأسلحتها وقيادتها وكفايتها الحربية

وعاود إبراهيم باشا التقدم بقواته وكان هدفه هذه المرة حلب
واحتل فى طريقه حماة ودانت له أورفا وديار بكر ثم استمر فى زحفه

حتى بلغ مواقع العثمانيين فى بيلان وذلك فى ٣٠ يوليو سنه ١٨٣٢

وكانت قوة الأتراك فى بيلان تشتمل على ٤٥ ألف جندى تشد أزرهم مدفعية كبيرة تضم ١٦٠ مدفعاً، وترابط فى مواقع منيعة ، غير أنها كانت تفتقر إلى الروح المعنوية بعد ما لحق العثمانيين من هزائم مريرة ، أما الجيش المصرى فكان ثملا بخمر النصر يكسب الوقعة بعد الوقعة ويتقدم فى غزوة موفقة لا قبل لأحد بدفعها ...

وفى ذلك اليوم ٣٠ يوليو بدت أوضاع الفريقين كما يأتى : —

الجيش التركى بقيادة حسن باشا يحتل قمم الجبال فى بيلان وهى مواقع دفاعية جيدة تتحكم فى طرق الاقتراب وتستر الجنود وتعطى ميداناً جيداً للضرب وتعوق تقدم المهاجمين وتخفى المدافع عن الخصوم

وكان الجيش المصرى بقيادة إبراهيم باشا يحتل السهل المنبسط وقد نظمت الصفوف فكان المشاة فى الصف الأول ثم المدفعية ثم الفرسان وأخيراً الاحتياطى من الأسلحة والذخيرة والمهمات

ويعطى ذلك فكرة عن مناعة المراكز التركية التى لم تتوفر لدى الجيش المصرى وهو محتشد فى أرض مكشوفه واضحة الأهداف وهنا تظهر براعة القائد فى تكييف موقفه ووضع خططه وتظهر كفاية الجنود فى تنفيذ هذه الخطط وكسب معركة عنيفة أخذ العدو بأغلب مميزاتها

وكانت قلة جنود إبراهيم باشا تقضى بالالتفاف من الجنب لأن الهجوم بالمواجهة يعرض القوات المهاجمة للنيران البعيدة التى تطلقها المدفعية والتى تقذفها بنادق الجنود المحتمية بالصخور والمختفية فى مواقع القتال

وهذا الالتفاف الجانبى يحتاج أيضاً لتثبيت قوات الوسط وشغل قوات الميسرة عن العملية الجارية فى الميمنة ولهذا أنفذ إبراهيم بعض قواته من المشاة والفرسان المؤيدة بالمدفعية وتولى بنفسه قيادة هذه الحركة ، وهى العملية الرئيسية ، وقد أوجد لها احتياطيا كافيا ، هذا بينما أنفذ قوات أخرى لتثبيت الوسط وشغل بقية قوات العدو

وعلى الرغم من صعوبة التحركات فى هذه البقاع الجبلية ، وما كان يكتنف العمليات من مصاعب جمة وشدائد هائلة ، وعلى الرغم من تعرض الجبهة المصرية إلى رصاص الأعداء ونيران مدافعهم فإن العملية استمرت فى نجاح حتى بلغت أهدافها ووصلت الجنود إلى الأماكن التى تبدأ منها الهجوم ، وبدأ القتال ، ولم يمض وقت طويل حتى تراخت قوات الدفاع وزلزلت المواقع فانجابت عنها الجنود التى استهدفت لنيران المدفعية ورصاص الضاربين المهرة ، هذا بينما بدأ الهجوم فى الوسط وارتدت فرسان الأتراك وتفرقت على غير هدى وأصاب الجناح الأيمن مثل هذه الهزيمة حين سلط عليه الهجوم .

فانهزمت قوات العثمانيين بصفة نهائيـة وأمعنت فى الفرار بعـد ان ذاقت انـكساراً حربيـا مرًّا .

وفقد الأتراك فى هذه الوقعـة ٢٥٠٠ بين قتيل وجريح وغنم المصريون ألفى أسـير و ٢٥ مدفعـاً وعدداً من الأسلحة والذخائر ودخلت القوات المصرية «بيلان» ثم اجتازت حدود سوريا الشمالية إلى أدنة ومنها بدأ إبراهيم يستعد للزحف فى الأناضول .

وبينما كان الجيش المصرى يشهر هذه الحرب الراعدة على الجيش العثمانى كان الأسطول المصرى يجوب البحار باحثا عن غريمه ، وقد ذكر القنصل النمسوى فى تقرير بعث به إلى مترنخ فى ٢٠ يونيو سنة ١٨٣٢ « إن تفوق أسطول محمد على على أسطول الأتراك أمر لا شك فيه فإذا نظرنا إلى مصير الحرب من هذه الناحية لم يخالجنا الشك فى أنها ستـكون وبالا على الأتراك » .

على أنه لم يحدث اشتباك بين الأسطولين ، فبعد تردد طويل عاد كل منهما إلى قواعده سالما .

وبعد موقعة بيلان أحس السلطان بقلق متزايد مما سيأتى به المستقبل ولم يشأ أن يستسلم لتلك الهزائم التى ذاقتها قواته فى سوريا وسارع إلى إعداد جيش كبير عهد بقيادته إلى خيرة جنده الصدر الأعظم محمـد رشيد باشا الذى وضع تحت تصرفه ٥٣ ألف

مقاتل ، ولكن هذا الجيش الكبير كان مصابا ببلاء عدم التجانس إذ كان خليطا يفقد الرابطة ويفتقر إلى القوة المعنوية

وكان إبراهيم ينهب الطريق فاتحا غازيا فاستسلمت له أورفا وعنيتاب ومرعش وقيصرية ثم مضيق كومك فى جبال طوروس وشفت خان وأولو قشلاق وهرقلة ، حتى بلغ مشارف قونيه بمجهودات بسيطة ، وهناك كان لابد من وقفه لإراحة الجنود وإعادة التنظيم ودراسة المكان ريثما توضع الخطط على أساس مايعرف من نيات العدو وتدابيره

وفى صبيحة يوم ٢٠ ديسمبر كانت قوات رشيد باشا قد أشرفت على الميدان واتخذت أماكنها على سفوح مدينة سيلة ، على مسافة ثلاثة آلاف متر من مواقع الجيش المصرى ، الذى كان يرابط شمال قونيه وترتكن ميمنته على أرض بها مياه راكدة ، مثلما كان نابليون يفعل بوضع قواته على مركز استناد . .

وكان ذلك اليوم - ٢٠ ديسمبر - من الأيام الشديدة البرودة التى يكتنف جوها ضباب كثيف يحجب الرؤيا ، فلا تكشف مواقع الطرفين ، وقد تقدمت قوات الأتراك حتى صارت على مسافة ستمائة متر من مواقع المصريين ، ولم يشرع إبراهيم باشا فى هجومه قبل أن يتحقق من مواقع الأتراك التى كشف عنها ضرب المدفعية . . ثم قام باستطلاع شخصى من نقطة قريبة واستطاع أن يتعرف الى أوضاع

خصمه وأن يصل إلى مكان الضعف فى دفاعاته . . . ثم شرع يسدد ضرباته بمهارة فائقة

وقاد إبراهيم باشا بنفسه الجيش المؤيد بقوات من الفرسان ثم هاجم ميسرة الترك هجوما أيدته المدفعية بنيرانها المتواصلة وحطّم ذلك الهجوم قوات الأتراك وأزالها عن مواقعها وهى تعانى هزيمة نكراء واضطرابا خطيرا ، وبعد قليل بدأ الهجوم العام وأحدقت القوات المصرية بجيش الأتراك وحاربته حربا لاهوادة فيها حتى كلت قوته وحاقت به هزيمه كاملة بعد سبع ساعات رهيبة

وهكذا انتهت وقعة قونية بنصر حاسم للقوات المصرية فقد أصيب الجيش التركى بضربة مرنحة أفقدته القدرة على المناورة وأضعفت همته كقوة مقاتلة ، وقد أسر فى هذه الموقعة قائد الجيش التركى وعدد من كبار ضباطه مع خمسة آلاف آخرين كما فقد نحو ثلاثة آلاف بين قتيل ومفقود ، هذا مقابل خسارة محدودة نسبيا فى الجانب المصرى وهى ٢٦٢ قتيلا

ولهذا تعد موقعة قونية من المواقع الفاصلة فى تلك الحقبة من الزمن ، فقد كانت آخر محاولات الأتراك لدفع غزاة أراضيهم وأصبح طريق الآستانة مفتوحا أمام إبراهيم باشا لاتعترضه قوات ذات شأن ... وأضحى النصر النهائى قريب المنال

وأخذت جيوش إبراهيم الفاتح تتقدم فى سوريا وهى تخوض معركة بعدمعركة وتسحق جيشا إثرجيش وكأنما كانت تطوى بساط الدولة العثمانية طيا نهائيا وتفتتح عهداً جديدا فى الشرق الأدنى، وقد استرعت انتصارات الجيش المصرى أنظار الدول الاوربية فبدأت تتدخل لتحقيق مطامعها الخاصة وتنفيذ مآربها الذاتية

وأرسل السلطان مندوبا لمباحثة محمدعلى فى ترك صيدا وطرابلس والقدس ونابلس تحت التبعية المصرية، ولكن محمد على رفض هذا العرض، وكان – وهو يتكلم بلسان الظافر – يرى أن تضم سوريا وولاية أدنة إلى مصر، وبذلك تكون جبال طوروس هى الحد الطبيعى بين مصر وتركيا

وقد رفضت الدولة العثمانية اقتراح محمد على الذى كان يضمن السلام وفضلت أن تلجأ إلى روسيا كى تستعين بها، ولم تتأخر هذه عن انتهاز الفرصة الذهبية فسارعت بتوجيه أسطولها الى البسفور وإرسال قوة عسكرية على الفور

ولكن نشاط الفرنسيين كان على أشده، فسعى كل من سفير فرنسا فى تركيا وقنصلها العام فى الاسكندرية سعيهما المشهور، بينما كان إبراهيم باشا من ناحية، والجنرال الروسى من ناحية أخرى يجدان فى السير نحو الآستانة

وقد هددت انجلترا وفرنسا محمد على باستخدام القوة مالم يستمع الى رأيهما فى الاتفاق مع السلطان ، وتبودلت الرسائل فى هذا الشأن غير أن حديث الكتب لم ينته الى نتيجة ، أما السيف فكان أصدق إنباء .. ذلك أن ابراهيم وثب بقواته وثبة جريئة فاحتل كوناهية وصار يهدد الآستانة ، فأرسل السلطان مندوبا للصلح ، وهو مصطفى رشيد بك ، وكان يصحبه مندوب من السفارة الفرنسية ليقرّب بين الفريقين ، وقد انتهت المباحثات فى ٨ أبريل سنة ١٨٣٣ ، وأسفر « صلح كوتاهية » عن تخلى السلطان عن سوريا وإقليم أدنه لمحمد على مع تثبيته على مصر وكريت والحجاز

وبمقتضى هذه الإتفاقية انجلت الجيوش المصرية عن باقى بلاد الأناضول ، وصدر الفرمان العالى فى ٦ مايو بمضمون الاتفاق ..

وهكذا انتهت الحرب السورية بتقرير موقف مصر الدولى واتساع نطاق حكمها ، وصار محمد على يتحكم فى مملكة شاسعة تنتهى حدودها الشمالية عند جبال طوروس ، وبدأت مصر عهدا جديدا لإذاعة رغائبها فى الحياة وأخذ مكانها بين الدول العظمى



غزو سوريا والأناضول

الحرب السورية الثانية

فى شهر مارس سنة ١٨٢٣ فُصل فى الحرب المصرية التركية بقوة السلاح وهزمت تركيا فطلبت إلى القائد المصرى شروطه لعقد الهدنة، ولكن فى اللحظة التى وقعت فيها معاهدة كوتاهية بدأ عهد نقض الوعود التى قطعت، وانتهى الأمر بتركيا إلى عقد معاهدة سرية مع روسيا أطلق عليها اسم «هنكار أسكلة سى»، وهى معاهدة للمعاونة المتبادلة يتعهد فيها الطرفان بأنه فى حالة الاعتداء على أحدهما فإن الطرف الآخر يقوم فى الحال بإنجاده بصفته حليفا وقد أعطت هذه المعاهدة لروسيا حرية المرور بين البحرين وإستخدام البواغيز مع إغلاقها فى وجه الدول الأخرى، فهذه المعاهدة - التى تنقص من السيادة التركية - إنما كانت رداً يملؤه التحدى على اتفاقية كوتاهية وإنذاراً بنقضها مهما كان الثمن الذى تدفعه تركيا

أما عن الجانب المصرى فقد قدمت مصر كل دليل على اعتزامها الوفاء بتعهداتها وانصرف إبراهيم إلى إخماد الثورات - التى كانت الأيدى المغرضة تحركها - وإلى تهيئة البلاد لعهد جديد تنعم فيه بالحرية

والإصلاح والرقى ... فتركيا كانت العازمة قبل كل شيء على إعادة فواجع الحرب ولم يبد من جانبها أى دليل على المسالمة بل أنها كانت تساعد الثوار وتبذل الوسائل المختلفة لمعارضة الحكم المصرى فى سوريا وتعد العدة لنقض تعهداتها والعودة بجيش زاحف للثأر وإستعادت ما تنازلت عنه فى وقت هزيمتها الحربية ولذلك وُصفت معاهدة كوتاهية بأنها صلح مزعزع الأساس تنقصه جميع عوامل الثبات ، وأوجدت تركيا بتصرفاتها ما يفرض على القائد المصرى الاستعداد لكل طارىء فإذا ظهر أن تركيا غير جادّة فى تنفيذ تعهداتها فإن الجيش المصرى ينهض ويقاتل . . وقد أثبت المؤرخون لأى مدى بعيد كان السبب فى عود التطاحن من جديد الى التدخل الأجنبي وإلى تقصير الأتراك فى فهم روح مصر الحديثة

ولماظهرت بوادر الخلاف وظهرت أمارات الاستعداد والتحرش رؤى الالتجاء إلى الوسائل السلمية فجرت محادثات لم يقدر لها أى نجاح فقد كانت اليد الأجنبية تلعب دورها وتعكر الماء حتى يصبح صالحاً للصيد وشجّع ذلك تركيا على المضى فى خطتها ولذلك لم تسفر المفاوضات عن شيء ولما اتسعت الهوة لم يجد محمد على بدأ من إعلان الاستقلال حتى يقطع الخيط الأخير الذى يربطه بتركيا واستدعى لذلك وكلاء الدول وأعلنهم بقراره فى شهر مايو سنة ١٨٣٨.

وفى يناير سنة ١٨٣٩ عقد السلطان مجلساً حربيا واستقر رأيه على إعداد ٨٠٠٠٠ جندى بقيادة حافظ باشا ، للزحف على الشام وبذلك انقضى وقت التسوية الملفقة وشرعت القيـــادة المصرية فى الاستعداد ، بعد أن فعلت كل ما تستطيع فقد تمكنت الدول من التأثير على السلطان وتحريضه على مقاتلة محمد على

أما رأى والى مصر فى ذلك الوقت فقد أعلن عنه بهذه الكلمات القليلة المبنيـة على حسن التقدير ومضاء العزم « إننى لا أرغب فى الحرب ولن أقدم على عمل عدائى ولكنى أطلب الاستقلال ولن أتخلى عن هذه الغاية . . »

فلما تطورت الحالة وشرعت تركيا فى الأعمال العدائية لم يعد سبيل للرد على العنف إلا بالقوة والعنف فأخذت القيادة المصرية تعد عدتها وتحصن مناطق الحدود وتقيم القلاع وتصنع المدافع حتى تم سد مضايق جبال طوروس وتأمن على باب سوريا من ناحية الأناضول وقد فطنت القيادة التركية إلى صعوبة هذا المنفذ فغيرت خطتها واستعد قادتها لوضع خطط حربية ترمى إلى الزحف من جهات أورفة وديار بكر حيث لا تقع المواقع الطبيعية فى طريق الجيوش وأزاء هذا رأى إبراهيم باشا حشد قواته فى حلب لمراقبة تحركات الأتراك وصد هجماتهم ، وجعل طلائعه تسد مشارف عينتاب وكليس

وغيرها من اليلاد المشرفة على الحدود .

ووصلت نجدات من مصر وعلى رأسها أحمد باشا المنكلى وزير الحربية موفداً من قبل محمد على باشا لمعاونة ابراهيم فى الخطط المنتظرة ، وقد عارضت الدول فى سفر وزير حربية مصر فى ذلك الوقت المشحون بكهرباء العداوة بين مصر وتركيا ، غير أن هذه الدول لم تستطع أن تتعهد لمحمد على باشا بأن الجيش التركى لا يزحف على الشام ولذلك أنفذ وزيره على الفور ومعه التعليمات اللازمة

وقد شرع الجيش التركى فى الزحف فعلا وأخذ قسم منه بقيادة اسماعيل باشا يعبر نهر الفرات يوم ٢١ أبريل سنة ١٨٣٩ واحتشدت طلائع الترك فى قرية نصيبين وأخذت فى احتلال القرى واجتياز الحدود المرسومة فى اتفاقية كوتاهية وعند ذلك تحركت القوات المصرية من حلب ودخلت بلدة تل باش يوم ٣ يونيو دون أن تقع معركة ، هذا بينما دخل الأتراك عنيتاب التى انجلت عنها حاميتها مقهورة .

ولا يغيب عن البال أن ابراهيم باشا قد أجل تحركاته إلى آخر وقت ممكن حتى لا يكون البادىء بالعدوان وحتى تصله أوامر صريحة من والده وفى الفترة التى سبقت بدء القتال تبادل القائدان الرسائل

دون أن يقف النشاط الحربى حتى وصلت الحالة الى مرحلة الخطر وجاء إلى إبراهيم باشا الأمر من والده، بعد طول الانتظار وفيه يقول : —

« إن اعتداء العدو علينا قد تجاوز كل حد معقول ، وكلما صبرنا عليه رغبة منا فى عدم معارضة رغبات الدول الكبرى كلما زاد عدونا إيغالا فى بلادنا فعلينا أن نرد هجومه بمثله ولما كان العدو هو المعتدى فان الدول لن تلق التبعة علينا ... ونصيحتى اليك أن تبادر عند وصول رسالتى بالهجوم على جنود العدو الذين دخلوا أرضنا وأن لا تكتفى بإخراجهم منها بل عليك أن تزحف على جيش العدو الأكبر وتقاتله ... »

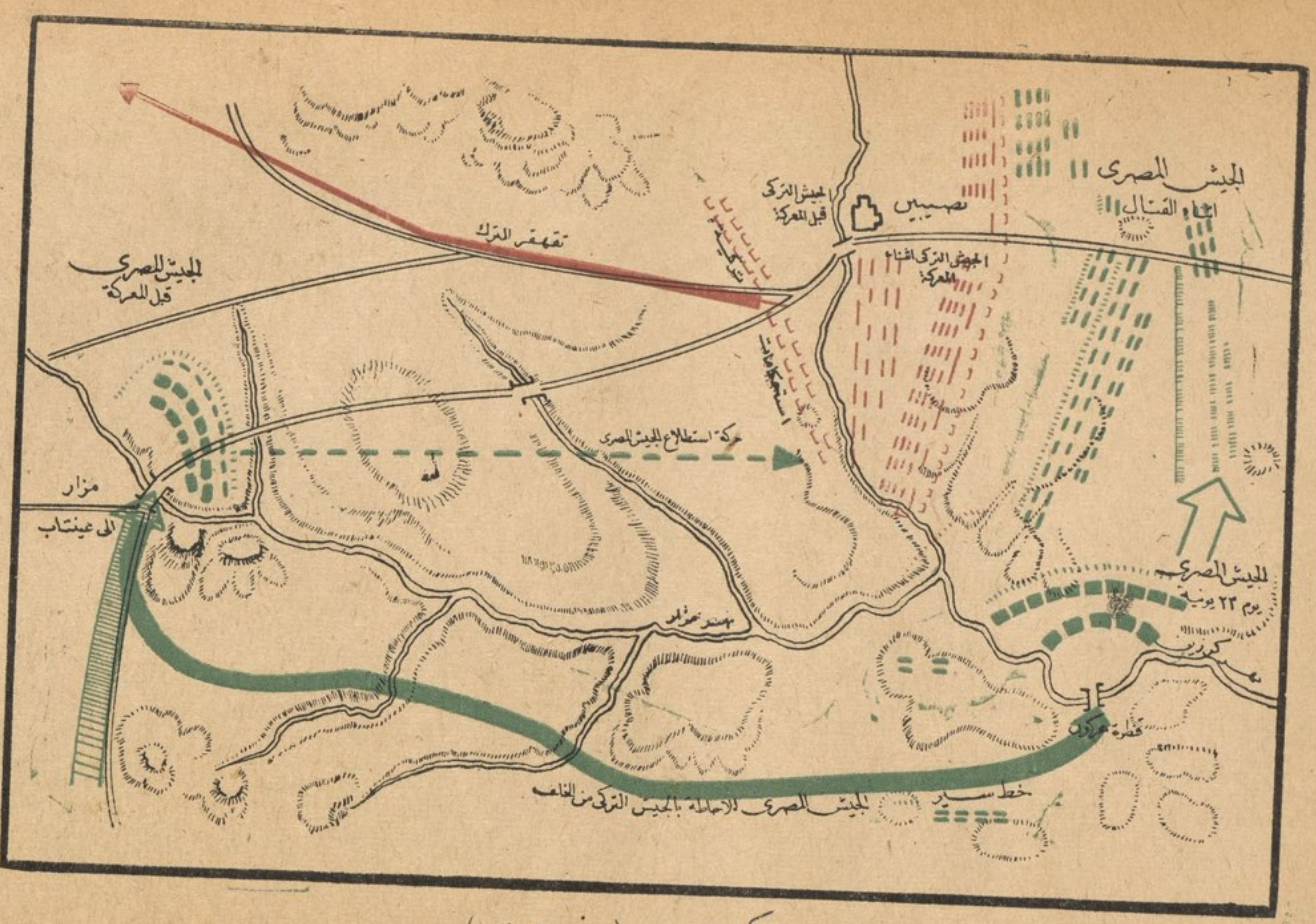
وكان الأتراك قد شرعوا فى تحصين نصيبين * التى وضع تصميم دفاعها قائدان بروسيان هما فون مولتكه وفون ملباخ، فكان معسكر الاتراك عند سفح التل الذى يجرى عنده نهر كوزين (كرسيم) وهو من نهيرات الفرات وتقع نصيبين على ضفته اليسرى ، فيصبح ذلك النهر حائلا بين الجيشين

---

* يوجد خلاف فى التسمية : نصيبين المشهورة التى دارت فيها رحى المعركة هى القرية الواقعة على الطريق الموصل بين بيرة جك والأسكندرة وتسمى « نزيب » وهى غير نصيبين التى بالجزيرة

أما خطة ابراهيم باشا فكانت شيئا جديد فى الفن الحربى يعبر عن مهارة القائد العظيم فى المواقف العسيرة فقد رأى أن يترك الجيش المصرى المعسكر الذى كان يحتله وقتـذاك ويسير مخترقا قرية مزار (جنوب غربى نصيبين) فى أثناء الليل ثم يدور لمواجهـة العدو من من الجنب تجاه قرية كرد قلعة ، وبذلك قلب الخطة التركية البروسية وجعلها ضد أصحابها وبذلك كانت خطة ابراهيم باشا مما لا يساير البديهيات والمبادىء الرسمية الشائعة وإنما كانت من طراز خاص يتطلبها موقف خاص وقد وصفها إيميل فنترينيه بأنها كانت وميضا من العبقرية إذا نجحت وأوهاما من عقل متعب إن أخفقت

وقبل أن نتحدث عن سير القتال يجدر بنا أن نذكر شيئاً قوات الطرفين وأوضاعها ، أما عن الناحية العـددية فكان الجيش المصرى مؤلفاً من ٣٧٦٧٣ من المشاة و٦٧٧٥ من الفرسان و٥٦٢٥ من الطوبجية فيكون مجموع القوات ٥٠٠٧٢ من الضباط وضباط الصف والجنود وكان معهم ١٦٢ مدفعا وقد جاء فى بعض المصادر أن الجيش المصرى كان مؤلفاً من نحو ٤٠٠٠٠ مقاتل فى مقابل ٣٨٠٠٠ فى معسكر الأتراك ؛ فالجيشان كانا متقاربين من جهة العـدد ، غير أن جميع المصادر قد شهدت بأن الجيش المصرى كان أحسن نظاما وأكثر دربة وأفضل قيادة كما أنه كان جيشا منتصرا ، قطع ١٠٠٠



معركة نزيب (نصيبين)

كيلو متر من طريق النصر ، وأصبح على قيد خطوات من المعركة الفاصلة فى سبيل حياة مصر ومستقبلها ومكانها فى الوجود ولا يُنس أن الجيش المصرى كان جيشا واحد أما الجيش التركى فكان خليطا لا تضمه رابطة واحـــدة وكانت قيادة الجيش المصرى معقودة لإبراهيم باشا ، البطل الفاتح ومستشاروه من رجال الحرب الممتازين وعلى رأسهم سليمان الفرنساوى واحمد باشا المنكلى واحمد باشا الدره ملى وعباس باشا طوسون وسليم باشا الحجازى وغيرهم

أما قيادة الأتراك فكانت معقودة للجنرال حافظ باشا وهو من أفذاذ المحاربين ، وكان مستشاروه من الضباط البروسيين المشهود لهم بالخبرة والجرأة وهم فون ملباخ والبارون مولتكة والجنرال وينكى والجنرال فيشه وكانت المعركة المنتظرة الوقوع هى القول الفصل فى هذه الخصومة التى طال مداها وقد أعرب سليمان باشا عن هذا الرأى بقوله : —

« إن الواقعة المقبلة ستكون معركة فاصلة ، فإما أن نذهب نحن إلى استنبول وإما أن يذهبوا هم إلى القاهرة »

وأخيراً جاء دور الجيوش وبدأت المعركة الكبرى

ففى يوم ٣٠ يونيو سنة ١٨٣١ وصل الجيش المصرى إلى قرية مزار ، وما أن ظهرت طلائع الجيش حتى أخذت القوات التركية فى

الانسحاب وإخلاء القرية التى كان يعسكر بها نحو ٥٠٠ جندى ولعل دخول الجيش المصرى كان مفاجأة الأمر الذى ألجأ الأتراك الى الانسحاب السريع تاركين معسكراتهم بأمتعتها ، فكانت أول غنيمة صادفها الجيش فى غزوته التاريخية

ثم بدأت عملية الاستكشاف وظهر أن الجيش التركى يرابط فى مواقع محصنة تعطيه الأفضلية وتضعف هجمات عدوه ، ولذلك رأى ابراهيم باشا أن يضيع على الأتراك هذه الميزة وذلك بأن يتحرك من الجنب دون أن يهجم بالمواجهة وقد اتخذت جميع التدابير المحكمة للفت نظر الأتراك عن الحركة الجارية حتى إذا انتهى الجيش إلى أمكنته الجديدة شرع قادته يعدون خطة الزحف والهجوم من الباب الخلفى ، الذى التفت اليه حافظ باشا أخيرا وأدار جيشه لمواجهته

وقد ذكر المغفور له الأمير عمر طوسون نقلا ن أوثق المصادر ، أن العمليات قد بدأت فى يوم ٢٣ يونيو ، وأن نشاط الأتراك كان ملحوظا بجلاء فقد كانوا يشتغلون بجد فى إقامة حصون بسيطة وقتية ليضمنوا بها ستر واجهتهم الجديدة على قدر الإمكان

ورأى ابراهيم باشا أن ينتقل معسكره مرة ثانية ، حتى يلتف حول غريمه من جهة اليسار ، فتصبح خطوط الجيش غير متوازية ويصير الجناح الأيمن للجيش التركى أقرب للهجوم ، وبذلك تجىء

الضربة من الجنب الضعيف ولهذا احتل الجيش المصرى ربوتين صغيرتين تواجهان الجناح الأيسر للترك

واستعد الجيش المصرى للهجوم الحاسم، وكان ضروريا أن يكون الجناح الأيمن قوياً فأضيف اليه قوة جديدة وعين لقيادته سليمان باشا وكان يتولى قيادة القلب أحمد باشا المنكلى والجناح الأيسر الميرميران عثمان باشا

وجاءت الساعة الحاسمة فأشار سليمان باشا إلى مدافعه فأرسلت وابلا من القذائف المبيدة فردت عليها الطوبجية التركية وتبودلت النيران بقوة وحماسة، ثم قام سليمان باشا بحركة تجميع نيران المدفعية فدكّت مواقع الترك وحطّمت قواهم الدفاعية التى لم تستطع الثبات وأخذت تنسحب من مواقعها، وتخلى كثير من الجنود عن مدافعهم وحدثت عدة انفجارات فى ذخيرة الجيش التركى فأوقعت الإرتباك وأضاعت مقاليد الموقف وتقدمت قوات المشاة من الجناح الأيمن لمهاجمة القوات التركية ولكن هذه أجابتها بنيران حامية فقضت على حركة الهجوم التى لم تكن قد نضجت بعد ثم صدر الأمر بالهجوم العام الذى أيدته نيران المدفعية ووقع ثقل الهجوم على الجناح الأيسر للقوات التركية وتحطمت مواقعه وحدث ارتباك كبير فى صفوف الأتراك، وانسحبت وحدات كثيرة على غير هدى وضاع

زمام المعركة وانتهى القتال ، ووثبت القوات المصرية إلى نصيبين وسجلت نصراً باهرا بعدعملية حربية ممتازة

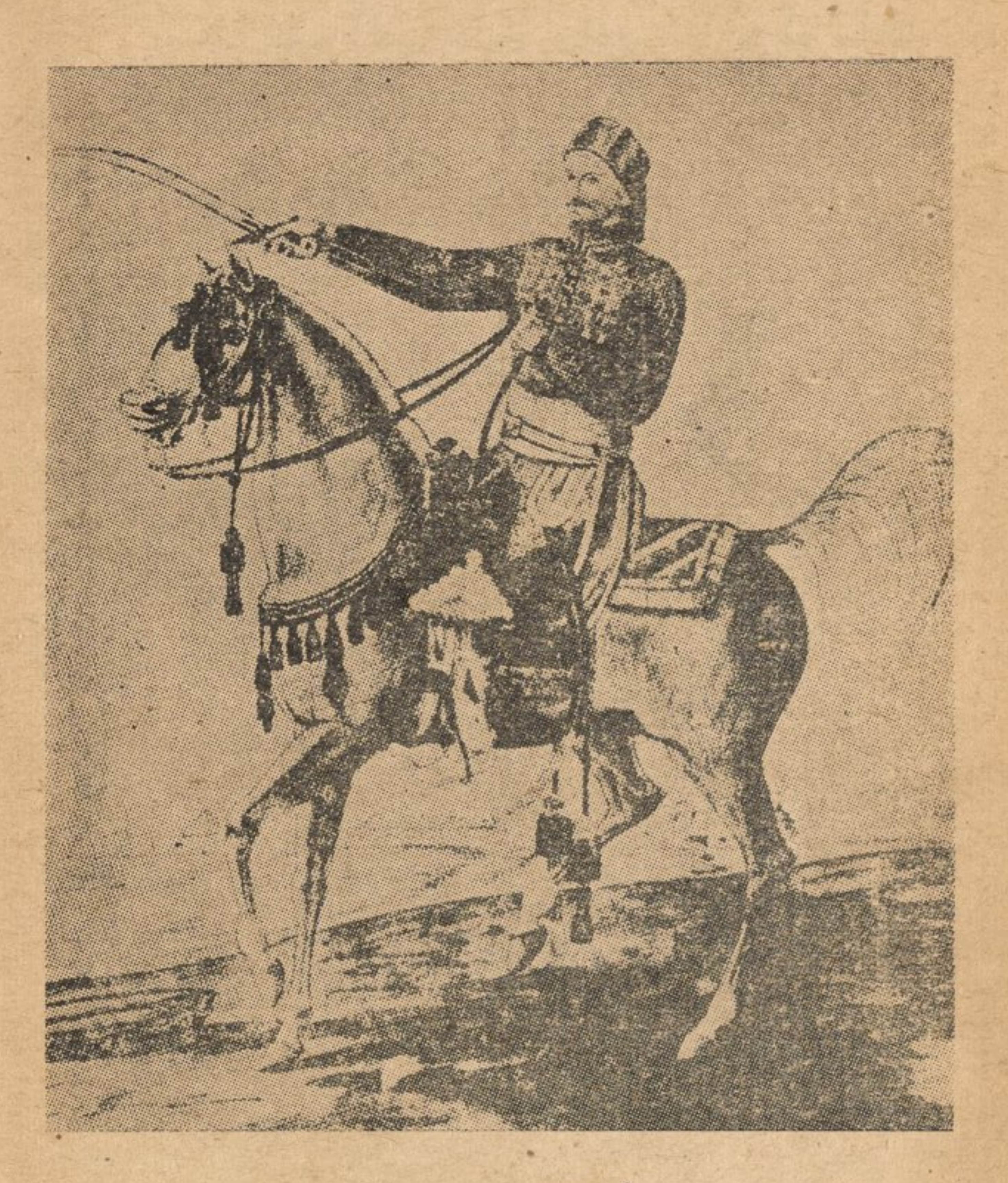
وكانت نتائج الإنتصار للجنود المصرية فى نصيبين عظيمة جداً من الوجهتين المادية والمعنوية وغنم المصريون ١٤٤ مدفعاً مع ذخيرتها و٣٠ مدفعا من مدافع الحصون و٢٣ ألف بندقية و١٥ ألف أسير هذا وقد فقد الأتراك ٣٠٠٠ قتيل و٦٠٠٠ جريح مقابل نصف هذا العدد من الجيش المصرى بين قتلى ومفقودين كما أن انتصار الجيش المصرى على الجيش التركى كان من الضروريات القصوى لإرهاب المزمعين على الثورة فى سوريا وجعلهم يخلدون إلى الطاعة وقد تحقق ذلك ولولاهم لانتهى حكم محمد على وجاءوا هم إلى القاهرة كما قال سليمان باشا ، وقد أورد الأستاذ عزيز خانكى نقلا عن أوثق المصادر أن عددا من الوثائق وجد فى خيمة حافظ باشا منها وثيقة تتضمن التعليمات والخطط التى وضعها السلطان لحافظ باشاوخلاصتها أن محمد على ينوى إعلان استقلاله فى صيف عام ١٨٣٩ فأوجب السلطان على حافظ باشا السرعة فى القضاء على جيش إبراهيم وحدد السلطان خمسة أشهر لطرد المصريين من الأناضول وسوريا والاستيلاء على عكا وحدد أحد عشر شهراً أوسنة لإتمام الإستيلاء على سوريا ومصر .

وذكر البارون فون مولتكه أن الجيش العثمانى خسر فى تقهقره خمس أسداس عدده كما خسر جميع مدفعيته

وبعد هذا النصر المبين أصدر إبراهيم باشا أمراً يوميا جاء فيه: (أخبركم بأنى هجمت على الجيش العثمانى فى نزيب، وفى أقل من ساعتين استوليت على مدافعه وذخائره ومؤنه وقد قضى على الجيش كله وأنا أتابع سيرى ولا أقف أبداً)

وبلغت أنباء المعركة إلى محمد على باشا فى برقية أرسلها حفيده عباس باشا وقد جاء فيها «بعد ساعتين فى قتال مع جيش السلطان استولى إبراهيم باشا على جميع مدافع وخيم ومهمات الجيش العثمانى»

وقد أمر محمد على باشا بإقامة الأفراح احتفالا بهذا النصر العظيم مدة ثلاثة أيام كاملة أطلقت فيها جميع القلاع وجميع سفن الأسطول مدافعها ابتهاجا بهذا الحادث العظيم، هذا الحادث الذى وصفه الجنرال فيجان بقوله «إذا حكمنا على المعركة بنتائجها فإن معركة نزيب تعد بحق أكبر نصر حازه الجيش المصرى»



أحمد باشا المنكلي

جيوش محمد على

انتهت معركه نصيبين « نزيب » بانتصار لامع للجيش المصرى الذى استمر فى تقدمه واحتل بيره جك وعنيتاب ومرعش وغيرها وكان الطريق سهلا بعد أن تحطمت قوات الأتراك وفقدت القدرة على المناورة والقتال وأخذ المراقبون يتوقعون إقتراب الخاتمة وانتهاء عهد السيادة العثمانية ، ولم يعد هناك ما يمنع إبراهيم من الفوز بالآستانة التى اقترب يومها وحان قطافها

وقد قضى رئيس الدولة التركية ، السلطان محمود ، إذ عاجلته المنية فى أول يوليو سنة ١٨٣٩ قبل أن تصله أنباء جيشه الذى تحطم فى معركه وحيدة وترك أبواب تركيا مفتوحة على مصراعيها .. أما خليفته السلطان عبد المجيد الذى ولى الحكم فى السابعة عشرة ، فلم يدر كيف يواجه هذه الظروف التعسة التى ألمت بعرشه وعاجلته فى بداية حكمه

وتوالت الحوادث المعكرة على السلطان الجديد ، فان اختيار خسرو باشا صدرا أعظم جرّ على السلطنة كارثة كبيرة ، ذلك أن أميرال الأسطول العثمانى ، أحمد فوزى باشا ، كان من ألد أعداء

خسرو ، فحدثته نفسه أن يلوذ بالفرار حتى لا يظفر به عدوه وفضّل أن يقلع بالأسطول إلى مصر ويسلمه إلى محمد على ، رجل الساعة ، الذى دان له النصر وفتح له المستقبل ساعديه

وهكذا ترك الأسطول العثمانى موانيه فى الدردنيل يوم ٤ يوليو متجها إلى الإسكندرية فوصلها يوم ١٣ يوليو ، وأقبلت على الميناء عمارة ضخمة مؤلفة من تسع بوارج كبيرة وإحدى عشرة سفينة وخمس قوارب كروفت ، وعلى ظهرها ستة عشر ألفا من البحارة وخمسة آلاف جندى .. فاستقبلتها العمارة المصرية ، ودخلتا الميناء معا فى مظاهرة رائعة . . وهكذا فقدت تركيا جيشها وسلطانها وأسطولها فى ثلاثة أسابيع

وقد قلنا أن إبراهيم قد فتح باب الآستانة عند ما حطم قوات الجيش التركى ونكل بها فى نزيب ، غير أنه فتح بابا آخر أطلت منه الأطماع الأوربية وكأنما اجتمعت كلمة الدول العظمى على مناهضة محمد على وإضاعة ثمرات النصر من بين يديه ، وهى التى أحرزها بعد جهود مريرة ودماء متدفقة وآلام وتضحيات . . وأرسلت الحكومات مذكرة مشتركة إلى الباب العالى ، فى ٢٧ يوليو سنة ١٨٣٩ لإبلاغه « إن الدول الخمس متفقة فيما يختص بالمسألة الشرقية وأنها تشدد فى ألا يتم صلح أو يبرم اتفاق مع محمد على ما لم توافق عليه الدول »

وقد تم الاتفاق بين « أصحاب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وإمبراطور النمسا وملك بروسيا وقيصر الروسيا » على تقديم المساعدة للسلطان فى المحنة التى وقع فيها على أثر سلوك محمد على العدائى نحوه ، تلك المحنة التى عرضت سلامة الدولة العثمانية وعرش الخلافة للخطر .. وهو الاتفاق الذى تضمنته معاهدة لندن « ١٥ يوليو ١٨٤٠ »

١ — أن تعمل الدول المتفقة بالتضامن على إرغام محمد على لقبول الشروط التى اتفق عليها

٢ — إذا رفض محمد على قبول الشروط التى سيعرضها عليه السلطان فعلى الدول ، بالاتفاق مع السلطان أن تتخذ التدابير الفعالة لتنفيذ شروط الاتفاق بواسطة قطع طريق الاتصال بين مصر وسوريا ومنع إرسال الأدوات والمؤن الحربية من البلدان وتنفيذا لذلك تصدر ملكة بريطانيا وامبراطور النمسا الأوامر اللازمة لأسطوليهما بالبحر الأبيض المتوسط لمساعدة رعايا السلطان الذين يظهرون ولاءهم وطاعتهم

أما القانون الخاص الملحق بالمعاهدة فهو :—

يعلن عظمة السلطان عزمه على منح محمد على الشروط الآتية :

١ — يتعهد السلطان بمنح محمد على وذريته من أولاده من بعده حكومة مصر ، وزيادة على ذلك يعد السلطان بمنح محمد على مدة

حياته حكومة جنوب الشام مع إعطائه لقب والى عكا وحكومة الحصن ويشترط السلطان لهذه المنح قبول محمد على لها فى مدى عشرة أيام بعد إعلانها اليه بواسطة مندوب عثمانى يرسله السلطان إلى الأسكندرية وبشرط إصدار التعليمات اللازمة بإخلاء شبه جزيرة العرب وجزيرة كريت وإقليم أطنه

٢ — إذا رفض محمد على الشروط المقدمة بعد عشرة أيام يسحب السلطان منحه حكومة عكا لمدة حياته ويوافق على إبقاء منحه الحق الوراثى فى حكومة مصر بالشروط المذكورة فى المادة السابقة

٣ — تعين الجزية حسب الشروط التى سينتهى محمد على بقبولها

٤ — يرد محمد على الأسطول العثمانى بكل أدواته ويسلم للمندوب العثمانى الذى سيعرض عليه الشروط دون أن يكون لمحمد على حق فى أى طلب من الباب العالى بخصوص تكاليف الأسطول مدة وجوده بمصر

٥ — جميع القوانين والمعاهدات النافذة فى الدولة تطبق على مصر وعكا كغيرها من أجزاء الدولة

٦ — القوات البرية والبحرية التى تكون لباشا مصر وعكا تعتبر جزءا من قوات الدولة

بالمرستون . نيومان . بولوف . برنوف . شكيب

وقد وقعت هذه المعاهدة وقعا سيئا بالنسبة لمحمد على غير أنه شرع من فوره فى الاستعداد للدفاع عن أراضيه وكون فرقا من الحرس الوطنى وتعهد القلاع بالإصلاح والتعمير واستدعى الجيش من بلاد العرب ووحد الأسطولين المصرى والتركى وأعدهما للقتال

وأعلن محمد على رفضه لمعاهدة لندن، وشجعته فرنسا على ذلك الرفض، فلما انقضت الفترة التى حددتها المعاهدة تحركت أساطيل الدول وجيوشها، ونزلت قوات إنجليزية وتركية ونمسوية على سواحل سوريا وبدأت تتوغل إلى الداخل، فسارع إبراهيم باشا بمواجهتها ونشب قتال راعب بين الطرفين فى منتصف سبتمبر، واستطاع الحلفاء أن يقبضوا على زمام الموقف وأن يردوا قوات إبراهيم باشا مرحلة بعد مرحلة حتى سقطت فى أيديهم بيروت وصيدا، وفى نوفمبر سنة ١٨٤٠ سقطت عكا، وبدت الأمور تسير إلى نهاية سيئة، واشتد وقع الحصار البحرى الذى ضربه الحلفاء على الشاطىء، ولم يستطع إبراهيم أن يتراجع بسلام بعد أن تقطعت المواصلات واضطربت الأحوال بسبب ثورة الأهالى .. ومرت أيام مريرة لاقت الحملة خلالها شدائد لا حصر لها وانتهى الأمر بانسحاب القوات المصرية إنسحاباً مضطرباً عاثرا، وغادرت البلاد السورية

وأخير اضطر محمد على إلى الموافقة على الصلح بالطريقة التى

اتفقت عليها كلمة الدول العظمى ، وهى تضمن حكومة مصر وراثية وصدر الفرمان بذلك فى فبراير سنة ١٨٤١ . وظفر محمد على بتثبيت عرشه وعرش أسرته فى مصر فوضع بذلك أساس مصر الحديثة ..

وعاد السيف إلى غمده ، بعد أن أدى واجبه ، وسجل صفحات مجد وفخار بسطور من الدم الذى أريق فى سبيل نهضة مصر وإعلاء رايتها وإبلاغها مكانا كريما بين الدول العظمى .

وإنه لما يدعو للغبطة والفخار أن يعيد المصرى النظر فى هذا التاريخ القريب فيشهد أعمالا تملؤه إعجابا وثقة بأبناء وطنه الذين أثبتوا جدارتهم فى كل ميدان وحقهم فى مكانة دولية محترمة ، فخاضوا حروبا طويلة وانتصروا فى معارك فاصلة وواجهوا أعظم الدول شأنا وسجلوا فى قتالهم ضروب البسالة والبطولة حتى قال ثقة من عظماء المؤرخين « أن المصريين هم أصلح الأمم لأن يكونوا جنودا ... »

وقال البارون بوالكونت « إن المصريين خير من رأيت من الجنود ، إنهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد ، وهم بقليل من الخبز يسيرون طول النهار يحدوهم الرضاء ؛ وقد رأيتهم فى قونية يبقون سبع ساعات فى خط القتال محتفظين بالشجاعة والبأس ... »

وقال كلوت بك فى كتابه « نظرة عامة حول مصر » : « لعل المصريين من أكثر الناس صلوحا واستعدادا لأن يصيروا جنودا

ممتازين، فهم على وجه العموم أشداء أقوياء البنية متصفون بالقناعة والجلد،
وقد أزاحت حرب المورة الغطاء عن أعين الترك الذين كانوا يحتقرون
المصريين احتقارا شديدا ويزدرونهم فظلوا زمنا طويلا يعتقدون
أنهم لا يعادلونهم كفاية، فعلمتهم هذه الحرب أن هذا الشعب الذى
ضعضعته المظالم وحطت من قدره وزرعت فى قلبه المخاوف فى
استطاعته أن يسترد مجده التالد وأن يقارعهم فى مواقف القتال.

ولعل خير ما فعله محمد على هو أنه لم يترك مسألة الدفاع الوطنى
لتكون تحت رحمة الدول الاجنبية فقرر أن يجعل الإنتاج الحربى
من صنع المصريين، فكانت الاسلحة والمعدات الحربية وأدوات
القتال والذخيرة تصنع فى مصر وبأيد مصرية، وكان ذلك أمرا
عجيبا حقا كما رآه المؤرخ الحربى المارشال مارمون، الذى أدهشته هذه
النتائج فى بلد ليس فيه خشب ولا حديد، فلما زار هذه المنشآت
العظيمة - أو كما قال - هذه المعجزة التى فوق الإدراك، رأى
عمالا ماهرين لدرجة كبيرة ولم يكن تدريبهم مقتصرا على النجارة
والحدادة والخراطة، بل إن بعضهم مهر فى الأعمال الدقيقة الفنية
وآلات الملاحة كالبوصلة والمناظير والأجهزة المختلفة ... »

وقد عُنى محمد على بتنشئة الضباط والجنود تنشئة عسكرية ممتازة
فأنشأ المدارس الحربية التى كان منها ما يختص بالضباط ومنها ما يختص

بالاسلحة المختلفة كمدارس المشاة ومدارس المدفعية والفرسان والموسيقى ، ولم يكتف بثقافة الضباط فى المدارس الحربية بل أنشأ مدرسة أركان الحرب، وكانت ثانى مدرسة أركان حرب أنشئت فى العالم

وقد ذكر كلوت بك إحصاء عاما للقوات المصرية البرية والبحرية النظاميه والاحتياطية سنة ١٨٣٩ فاذا هى :

الجيـــوش النظامية	١٣٠ر٣٠٢
« غير النظامية	٤١ر٦٧٨
الحرس الأهلى	٤٧ر٨٠٠
عمال المصانع المدربون	١٥ر٠٠٠
تلاميذ المدارس الحربية	١ر٢٠٠
جنود الأساطيل وعمال دار الصناعة	٤٠ر٦٦٣
المجموع	٢٧٦ر٦٤٣

وهى أرقام تغنى عن الكلام ! !

الفهرس

